

مَطْلَعُ النُّورِ

أو

طَوَالِعُ الْبَعَثِ الْمَحْمَدِيَّةِ

تأليف

عباس محمد العقاد

دار توعية، مصر للنشر والبيع
البحالة - القاهرة

مقدمة المقدمات

مطلع النور عنوان هذه الصفحات

ومدار البحث فيها على البعثة النبوية - بعثة محمد عليه السلام - وما
تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأمرة
الهاشمية ، وأحوال أبيه الشريفين

وبدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :

مقدمات تمهد لتأليفها وتفضي إليها

ومقدمات تأتي النتائج بعدما كأنها رد فعل لها ، وعلاج لأصاها
وعواقبها .

مقدمات من قبيل الفاء يأتي بعده الموت . فهو نتيجة وعقابه على
الشرعة المعهودة في ضائع الأشياء .

ومقدمات من قبيل يأتي بعده الدواء . فليس هو نتيجة له إلا على
معنى واحد . وهو لحاق الدواء بالداء . وظهور الشفاء بعد الحاجة إليه .

مقدمات تتحقق بها قرائن الطيبة

ومقدمات تتحقق بها عناية الله

ولاسيما حين تأتي الحاجة إلى الشفاء من غير المريض ، بل تأتي على
الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه وينبغيه .

وسبداً بالمقدمات من طوابع الغيب في تأويل التأويل إلى وفائع
الحس والعبان في أحوال العالم ، وأحوال الجزيرة ، وأحوال الأسرة ،
وأحوال البيت الذي طلع منه نور النبوة ، وبرز منه فجر التاريخ
الجديد في كل ما حوله ، وتحقق به عناية الله

ونرحل في نهاية المطاف أن يبلغ بها نتيجة النتائج كما تنفق عليها نظرة
الفكرة وبديهة الإيمان
وعلى بركة الله

الطوابع والنبوءات

على بركة الله نغضي في سرد المقدمات التي سبقت البعثة المحمدية
بنوعها :

مقدمات ترتبط بما تلاها من حوادث ارتباط الأسباب بالسيئات
ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط ، بل لعلها تنافضها
وتؤدي إلى خلافها . وأما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والمعدة بما
يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات ، بل هي العلاج الذي
يزيلها والآية التي تحول الأسباب الطبيعية إلى طريق الحكمة الأبدية التي
تتكشف أرائها من خواتمها . خلافاً للعرف الشائع من دلالة الأرائل
على الخواتم

ورائدنا في متابعة هذه مقدمات بنوعها أن ننظر في الآيات الكونية
والمعاني التاريخية . لأنها ولا شك عنوان إرادة الله المتصرف في الكون
كله ، ولأنها - على هذا - مفتوحة الصفحات لكل ناظر ومتأمل يعمل
بغريضة الإسلام الكبرى وهي لتفكير في ملك الله والنظر بالعقل في
حقائق السماوات والأرضين

ورائدنا في البحث عن مقدمات الدعوة النبوية أن إرادة الله ظاهرة في
ملكه وآيات خلقه . وإن الناس مطالبون بالنظر في هذه الإرادة قبل
النظر في المعجزات والحوادث التي لا تأتي في كل حين ولا تخص المؤمنين
دون سائر المصدقين بالحق والعبان

وسألنا عن كل معجزة لا بدور عن إمكانها أو استحالتها ، فليست المعجزات بالقياس إلى قدرة الله خالق الكون إلا كالمألوفات التي تجري بها العادات في كل يوم ، فإذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها فالذي خلقها وخلق خصائصها بملك تغييرها وتبدلها وبأق بالمعجزات كما يأتي بالمنظور والمطرود من التواميس والعادات ، وعقيدتنا في ذلك عقيدة الإمام الغزالي رضي الله عنه حيث قال غير مرة إن الحوادث تجري عند حصول الأسباب ولا تجري بحصول تلك الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا إرادتها ولكن المادة وخصائصها جميعا من فعل الحكمة الإلهية التي تسخر كل شيء بمقدار

فنحن لا نسأل : هل المعجزة ممكنة أو غير ممكنة ، فإن العقل الذي يقول إن المادة لا توحد إلا هكذا أفين من العقول التي تصدق كل شيء بغير بحث ولا برهان

ولكننا نسأل : هل المعجزة لازمة أو غير لازمة ؟ هل كان لها أثر مشهود في الإقناع بالدعوة كما ينبغي لكل معجزة ، أو كانت في تاريخ الدعوة عملا بغير أثر ولغير ضرورة ؟

ذلك أن الله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة ويغرفها لحكمة ، ونعال الله عن العبث في غير معنى . فلا يكون خرق القوانين وخلق المعجزات لغبر قصد يعلمه شهود المعجزة التي تخالف ما لو فهمم ويجري العادات أمامهم كل يوم

وقد أشرنا إلى ذلك في كتابنا عن عبقرية محمد حين قلنا إن علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة ، وهي أسباب

تتمهده نظهورها ، وهي رحل بضطلع بأمانتها في أوامها ، فإذا جمعت هذه العلامات فإذا يلجئنا إلى علامة ؟ وإذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها نتوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ وقد خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، وإلا فلأى شيء خلق ؟ ولأى عمل من أعمال الحياة نرشحه كل هاتيك المقدمات والتزييفات . وكل هاتيك المتأنيب والصفات ؟ لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن اكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به في سوق التجار والشراء . ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ثم نطل صدقته العليا معطلة لا حاجة إليها في هذا العمل منها ينسج له المجال . ولو اشتغل زعما بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد . فالذي أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة الغلبة دون سواها . وما من أحد قد أعد في هذا الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد

وقنا عن بشارت الرسالة المحمدية إن المؤرخين « يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشارت الرسالة المحمدية : يسردون ما أكدوه لرواة منها وما لم يؤكدوه وما قباء الثقات منها وما لم يقبلوه . وما أيدته الحوادث أو ناقضته . وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته . ويتفرقون في الرأي والحوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة . فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشارات التي سبقَت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام ؟ لا موضع هنا لاختلاف .

« فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدق النبي بالرسالة . أو كان لبوت الإسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ معزاها ومؤداها ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه . وقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها . فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابر إلا بعد عشرات السنين . يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين . أما العلامة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها فهي علامة الكون أو علامة التاريخ . قالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة . ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ . »

على هذا المحك البسيط تعرف أخبار الخوارق والمألوفات في تاريخ الدعوات النبوية . ويبقى أن نقرر في هذا المقام - لأنه مقامه الذى يذكر فيه - أن المؤرخ المسلم الذى يكتب بالآيات الكونية إنما يختار الطريق لأنه طريق واضح العالم أمامه وإمام الناظرين الذين يعملون بهداية الإسلام في تدبير الآيات والبحث عن الحقائق المبرجرات . ولكنه لو شاء لوجد لديه ذخيرة من الطوائع والنبوءات التي يعتمد أتباع الأديان

المختلفة على أمثاله . وقد يعز عليهم أن يجدوا أمثاله في المصادر التي يؤمنون بها ولا يشكون . فلا يعتمد المؤرخ المسلم على الآيات الكونية لقلة الطوائع والنبوءات التي تنوب إليها - لو شاء - كما ينوب غيره ، وإنما يعتمد توثيقاً للبيئة وإثباتاً لأفضل الحسينين في مقام المقابلة بين المشاهات

ومن الحسن أن تأمل على أمثلة من الطوائع والنبوءات التي وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبي عليه السلام مكتوبة قبل أو أن تظهره بعشرات القرون ولاحظ أن هؤلاء المؤرخين . أو أكثرهم . من فضلاء الهند وفارس والأهم الشرقية التي تتكلم غير العربية ، وسر ذلك أنهم ورثوا في بلادهم منافع الديانات السابقة ولم يشاءوا أن تكون هذه الطوائع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الإتيان بنظائرها التي تقابلها في كفة الديانة الإسلامية . فهم يتوخون إلزام الخصم بالدليل المثل ولا يعيهم فعلاً أن يجدوا ذلك الدليل مساوياً أو راجحاً في الدلالة عن أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التي يستدعيها المقام ولا يجوز إهمالها في تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الإجمال

من هذه الكتب كتاب باللغة الإنجليزية ألفه «مولانا عبد الحى فداىى» رتبه محمد في الأسفار الدينية العالمية « واستفاد من مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوربية ، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عسم البحث في كتب فارس واخذ وبابل القديمة . وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع

أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا اطلعنا على شاهد أقوى منها في روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية

ويقول الأستاذ عبد الحق إن اسم الرسل العربي ، أحمد ، مكتوب بلفظه العربي في السامافيدا (Sama Veda) من كتب البراهمة ، وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها أن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قست منه النور كما ينس من الشمس .

ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التي قد تأتي من جانب المنقسمين البرهمنين ، بل ينقل عن أحدهم (سبنا أشاريا) Syana Acharya أنه وقف عند كلمة أحمد ، فالتبس لما معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهي : أهم ، ر ، آت ، و ، هي ، . . . وحاول أن يجعلها تفيد ، أنى وحدى تلقيت الحكمة من أنى . قال الأستاذ عبد الحق ما فخره أن العبارة منسوبة إلى البرهمي (فأترا كانفا) Karna من أسرة كانفا ، ولا يصدق عليه القول بأنه هو وحده تلقى الحكمة من أيه

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكلمة المعطية ثابت في كتاب الآثارفا فيدا Atharva Veda حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه أنه ذو جرائب ثمانية وذو أبواب تسعة والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية إلى الكعبة وهي باب إبراهيم وباب الرذاع وباب الصفا وباب علي وباب عباس وباب النى

وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم ، ويسره أسماء الجواب ثمانية حيث ملئت الجبال ومى في قوله جبل خليج وجبل قيقان وجبل مندى وجبل لعلع وجبل كدا وجبل أنى خديدة وجبل أنى قيس وجبل عمر ويضرب المؤلف صفحا عن تفسير البرهمنين لعنى البيت هنا بأنه جسم الإنسان ومنافده ولا يذكره لأنه على ما يظهر يخالف القداسة الروحية في البرهمية . ولا يأنى بتفسير للجواب الثمانية عند تفسيره للأبواب بذلك المعنى

وفي مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف أن النبي محمد مذكور بوصفه الذي يعنى الحمد الكثير والسحفة البعيدة . ومن أسماء الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذي ورد في كتابه الآثارفا فيدا Atharva Veda حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهرطقة «العشرين» وستين تقام مع تسعة وتسعين . وهذا على تقدير المؤلف عدة أهل مكة ورعاة لقبائل الكبار ووكلائهم الصغار كما كانوا يوم قاتلوا النبي صلى الله عليه وآله

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات وأشباهاها يستخرج منها الطالع بعد الطالع والنبوة إلى جانب النبوة لما يخفى المثل عليه عن ستقصاء جميع موافقاته وعلاماته

وكذلك صنع يكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب عوسية واستخرج من كتاب زندافستا Zend Avesta نبوة عن الرسول بوصف بأنه رحمة للعالمين «سوشانت» Sushyant ويصعدى له عند يسمى بالفارسية القديمة أبا هب Angra Mainyu . ويدعو إلى إله واحد لم

يكن له كفؤاً أحد (هيج جيز باونغار) وليس له أول ولا آخر ولا ضريح
ولا قريح ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا
مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة

« جز آخاز والحام انباز ودشمن ومائند ومار وبلدر ومادروون وفرزند
وحای سوى وتن آسا وتبانی ورنك وبوی است »

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام :
أحد صمد ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد له كفؤاً أحد ولم
يتخذ صاحبة ولا ولداً

ويشفع ذلك بمقتضيات كثيرة من كتب الردشيتية تنبئ عن دعوة
الحق التي يحى بها النبي الموعود وفيها إشارة إلى البادية العربية ، وترجم
نبذة منها إلى اللغة الإنجليزية معناها بغير تصرف « أن أمة زردشت حين
ينبذون دينهم يتصعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه
فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عباده الناري هياكلهم يولون
وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصحون
وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ ،
وهي الأماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم ، وأن نبهم ليكونن
فصيحا يتحدث بالمعجزات » (١)

وقد أشار المؤلف بعد البيانات الآسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب
العهد القديم والعهد الجديد فقال إن النبي عه السلام هو المقصود بما

جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من
سيناء وأشرق لهم من سعير وتلاًلاً من جبل فاران وأتى من ربوات القدس
ومن بجبته نار شريعة لهم »

وجاء بالنص العبري كما يلي :

« ويومر بهوه ميباني به وزارح مسير لاسو هو فيع مهر باران وانا
مر بيوت قودش ميميفر ايشر داث لاسو » .

فترجمه هكذا : « وقال أن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير
ثم وسطع من جبل فاران جاء مع عشرة آلاف قديس . وخرج من
بينه نار شريعة لهم »

وقال إن الشراهد القديمة جميعاً تنبئ عن وجود فاران في مكة .
وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيبوس Eusebius « أن قديس بلد
عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من مكة »

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التي صدرت في سنة ١٨٤٦ أن
إسماعيل « سكن بركة فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض
مصر » . ثم قال إن سفر العابد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران إذ
جاء فيه أن بني إسرائيل أوغلوا « من بركة سيناء » فحلت السحابة في
بركة فاران . . . ولم يسكن أبناء إسماعيل قط في غرب سيناء فيقال إن
جبل فاران واقع إلى غربها . وفي الإصحاح الثالث من كتاب حبقوق أن
« الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » فهو إذن إلى الجنوب
حيث تقع تيمان بموضعها الذي تقع فيه اليمن مرادفها بالعربية . ولم يتحدث

قط أن نبيا سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبي محمد عليه السلام ،
وقوديس ترجم بقديس في رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها
بالملائكة في الترجمات الأخيرة . كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء
بشريعة بعد موسى الكليم ، فقول موسى الكليم : إن نبيا مثلى سيفهم لكم
الرب إلهكم من إخوانكم أبناء إبراهيم . بصدق على نبي من أبناء إبراهيم
تقدمه في الزمن ، ويرجح المؤلف أن المدينة التى نعلم فيها موسى عليه
السلام في صحبة يرون - أى شعيب - لم تكن هى مديان الأولى التى
تخربت بالزوال كما جاء في القرآن الكريم ، ولكنها كانت مدينة
الحجاز التى سميت يرب على اسم يرون ، وما يعز ذلك أن بطليموس
الجغرافى يقول بوجود موضعين باسم مديان وإن كان قد اخطأ على رأى
المؤلف في تعيين الموضعين . وقد جاء في سفر التكوين أن مديان بن
إبراهيم الذى سميت مديان الأولى باسمه كان له أخ اسمه عفار ، وهو الذى
يقول نوبل Knoch شارح التوراة أن ذريته كانت تنزل في عهد البعثة
الإسلامية إلى جوار يرب ، ولعل موسى تلقى اسمه في ذلك الجوار . إذ
كانت تسميته العربية أرجح من تسميه المصرية أو العبرية ، فإن ابنة
لمعون لا تسميه بالعبرية ولا يسميه بها من يريد خلاصه من مصر
المولودين العبريين ، وصحيح أن كلمة ميسو Messo بالمصرية معناها
الطفل كما يقول بعض الشراح المحدثين ، ولكن اليهود لا يرضون لتسميم
ومخرجهم من أرض مصر اسما مستعارا من المصريين

• • •

ومن الجامعات التى عنت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة
الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية ، فإنها
أفردت للنبوءات والطوائع من ظهور محمد عليه السلام بحثا سببا في
مقدمة الترجمة شرحت فيه بعض ما تقدم شرحا مستفيضا وراحت عليه
نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء : وهى التجلى من سيناء وقد
حصل في زمانه والتجلى من مسير أو جبل الشعر وقد تجلى في زمن السيد
المسيح . لأن هذا الجبل - على قول الجماعة الأحمدية - واقع حيث
يقم أبناء يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر . وأما التجلى
الثالث فمن أرض فاران وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة ، وقد
جاء في كتاب فصل الخطاب أن الأطفال بجيوش الحجاج في تلك الأرض
بالرباحين من « رية فاران » . . . وقد أصبح أبناء إسماعيل أمة كبيرة كما
جاء في وعد إبراهيم فلا يسمهم شريط من الأرض على تحويه كنعان .
ولا وجه لإنكار مقامهم حيث أقام العرب المتسبون إلى إسماعيل ولا
باعت لهم على انحلال هذا النسب والرجوع به إلى جارية مطرودة من
بيت سيدها . وقد جاء في التوراة أسماء ذرية إسماعيل الذين عاشوا في
بلاد العرب . وأولهم نيايوت أو نيات أبو قبائل قریش . الذى يقرر
الشارح كانريكارى Karpikari إنه أقام بذريته بين فلسطين وبتع ميناء
يرب . ويقرر بطليموس ويطبق أن أبناء قدور - قيدر الابن الثانى
لإسماعيل - قد سكنوا الحجاز . وبغيف المؤرخ اليهودى يوسفوس
إليهم أبناء أدليل الابن الثالث في ترتيب العهد القديم . ولا حاجة إلى
البحث الطويل عن مقام أبناء دومة وتيماء وقدامة وأكثر إخوانهم الباقين
فإن الأماكن التى تنسب إليهم لا تزال معروفة بأسمائها إلى الآن . ومن

نبوءة أشعيا التي سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة يظهر جليا أن أبناء
إسمائيل كانوا يقبضون بالحجاز ، ففي هذه النبوءة يقول النبي أشعيا من
الأصحاح الحادى والعشرين : « رعى من جهة بلاد العرب تبتين
يا قوافل الدداتين . هاتوا ماء لللاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء .
واعوا المارب بغيزه فإنهم من امام السيف قد هربوا . من امام السيف
السلول ومن امام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب . فإنه هكذا
قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير بقى كل محد قيدار »

ويعود المنسرون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة قيدار
بهزيمة المكين فى وقعة بدر . وهى الهزيمة التى حلت بهم بعد هجرة النبي
الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير

وبقرنون هذه النبوءة بنبوءة أخرى من الأصحاح الخامس فى سفر
أشعيا يقول فيها : « ويرفع راية للأثم من بعدد ويصفر لهم من أقصى
الأرض فإذا هم بالعجلة يأتون . . ليس فيهم رازح ولا عائر ، ولا
ينعمون ولا ينامون ولا تنحل حزم أحلتهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم
سهامهم مستونة وجميع فسيهم معدودة . حوافر خيلهم كأنها الصوان
وبكراتهم كالزوبنة . »

وهذه النبوءة عن رسول بآنى من غير أرض فلسطين لم تصدق على
أحد غير رسول الإسلام

وتلحق بهذه النبوءة نبوءة أخرى من الإصحاح الثامن فى سفر أشعيا
جاء فيها أن الرب أنذره ألا يسلك فى طريق هذا الشعب قائلا :
« لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هذا الشعب فتنة ولا نخافوا خوفا

ولا ترهبوا . فقدموا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبكم . ويكون
مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبنى إسرائيل وفخا وشركا لسكان
أورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويلقون فيلقطون . . صر
الشهادة . أتحتم الشريعة بتلاميذى . فاصطبر للرب السائر وحبه عن
بيت يعقوب وانتظروه »

فهذه النبوءة عن رسول الله الذى يحتم الشريعة تصدق على نبي
الإسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده .

وتلحق بهذه النبوءة أيضا نبوءة من الأصحاح التاسع عشر فى سفر
أشعيا يذكر فيها إيمان مصر بالرسول المنتظر « وفى ذلك اليوم يكون مذبح
للرب فى وسط أرض مصر وعمود الرب عند تخمها . فيكون علامة
وشهادة لرب الجنود فى أرض مصر لأنهم يصرخون للرب بسبب
المضايقين فيرسل لهم خلصا وعاميا ويتقدمهم فيعرف الرب فى مصر
وبعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم فيقدمون ذبيحة وتقدمة ويندرون
للرب ويعرفون به ويضرب الرب مصر ضربا قشائيا فيرجعون إلى الرب
فيستجيب لهم ويشفيهم . فى ذلك اليوم تكون سكة مصر إلى أشور
فيجىء الآشوريون إلى مصر والمصريون إلى أشور ويعبد المصريون مع
الآشوريين فى ذلك اليوم يكون إسرائيل ثالثا لمصر ولأشور بركة فى
الأرض . بها يبارك رب الجنود قائلا . مبارك شعب مصر وعمل يدي
أشور وميدانى إسرائيل »

فالذى حدث عن قدوم أهل العراق إلى مصر وذهاب أهل مصر إلى
العراق إنما حدث فى ظل الدعوة الإسلامية ولم تتوحد العبادة بينهم قبل

تلك الدعوة ، وأن النبوة ستتم غدا على غير ما يهواه بنو إسرائيل ، إذ تكون البركة لمصر وأشور ولا تكون إسرائيل إلا لاحقة بكنتا الأمتين

• • •

ثم ينتقلون بالنبوءات إلى سفر دانيال حيث جاء في الأصحاح الثاني : « أنت أيها الملك كنت تنتظر وإذا بتمتلك عظيم . هذا التمثال العظيم البهي جدا وقف قبالتك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيد ، وصدره وذراعاؤه من فضة ، وبطنه وفخذيه من نحاس ، وساقاه من حديد ، وقدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف . كنت تنتظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قلبه اللتين من الحديد وخزف ف سحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والفضة والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافاة اليبس في الصيف فحملها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذي صرب لتمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها »

وبلى ذلك تفسير النبي دانيال لهذا الحلم إذا يقول : « أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إله السماوات أعطاك مملكة واقتدارا وسنطا وفعرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطها عليك جميعها ، فأنت هذا الرأس من ذهب وملكك تقدم بمسكة أخرى أصغر منك ومملكة تالفة أخرى من نحاس فتسلط على كل الأرض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد يدق ويسحق كل شيء ، وكالحديد الذي يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة وتكون فيها

قوة كالحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين وأصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصوا ، وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذلك كما أن الحديد لا يتصق بالخزف ، وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تقرر أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفتى كل هذه لمالك وهي تثبت إلى الأبد . لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا يدين . فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . . إله العظم قد عرف الملك ما سيأتي بعد هذا الحلم حتى وتعييره يقين »

وتعود الجماعة الأحمدية إلى التاريخ لتستمد منه انتماء على تعبير لنبي دانيال لتلك الرؤيا . من كلام النبي دانيال يفهم أن الرأس الذهبي هو ملك بابل . وأن الصدر وذراعي من الفضة تعبر عن مملكة فارس وميدية التي ارتفعت بعد دولة بابل ، وأن الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الإغريقية في ظل الإسكندر بقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين . وأن القدمين من الحديد تعبران عن السيادة الرومانية التي ارتفعت بعد ذهاب ملك الإسكندر . وتقول الرؤيا عن هذه الدولة الأخيرة أن قدما من قدميها خزف والأخرى حديد . وهو وصف يشير إلى جزء من الدولة في القارة الأوربية وجزء منها في القارة الآسيوية . فالقدم الحديد هي سيطرة الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة وهذه السيطرة تستمر على أقطار شاسعة وموارد غزيرة ولكنها تنطوي على الضعف الكامن من جراء التفكك بين أوصال الشعوب ، والرؤيا صريحة في وشك انحلال الدولة الرومانية في السنوات الأخيرة لهذا السب .

وتستطرد من ثم إلى أمور أهم وأخطر إذ تقول : « إنك كنت تنظر إلى أن قطع الحجر بغير يدبن فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقها . فانسحن حينئذ الحديد والحزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة اليدير في الصيف نحملها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر لدى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا ومدًا الأرض كلها . »

تقول الجماعة : « فهذه نبوة بظهور الإسلام . فقد اصطدم الإسلام في صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس . وكانت دولة الرومان يومئذ قد بسطت سلطانها على ملك الإغريق الإسكندري فبلغت من المنعة غايتها ، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطانها على بابل ، ثم صرته قوة الإسلام فانسحن حينئذ الحديد والحزف والنحاس والفضة معا وصارت كعصافة اليدير في الصيف ، وهكذا ينشأ ترتيب الحوادث وتعبيرها في رؤيا دنيال أنباء لأرب في معناه . إذ كنا نعلم أن بابل خلفتها فارس وميدية وأن سلطنة فارس وميدية كسرتها سلطته الإسكندر . وأن ملك الإسكندر خلفته الدولة الرومانية التي إقامت من عاصمتها القسطنطينية أركان مملكة أوربية أسيوبة . ثم انهزمت هذه المملكة وأدال منها الفتح الإسلامي وغزوات النبي والصحابة ،

وهذا الحجر الذي جاء في رؤيا دنيال يذكره أشعيا واسعاري متى . ففي الأصحاح الثامن من سفر أشعيا أنه : « يكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لكل من يبيت إسرائيل ، وفخا وشركا لسكان أوروشليم . ويعمر بها كثيرون ويسقطون ويلقون فيسقطون ،

وفي الأصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متى يقول : « لذلك

أقول لك إن مكوث الله يتزع منكم ويعطي لأمة تعمل آثاره . ومن سقط على هذا الحجر يترفض ومن سقط هو عليه يسحقه »

كذلك يذكره الحزبور الثامن عشر بعد المائة إذ يقول : « إن الحجر الذي رفعه لثاءون قد أصبح عقد البناء وركن الزاوية »

وبين من كلام السيد المسيح في الأصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متى المنفرد أن هذه النبوة تنبئ عن زمن غير زمن السيد المسيح . إذ يقول عليه سلام : « أما قرأتم قط في الكتب أن الحجر الذي يرفعه الشاهون قد صار رأس الزاوية . فن قل الرب كان هذا هو عجيب من أعيننا .

ثم نفطى النبوة - نبوة النبي دنيال - إلى عقابها فيصح الحجر جبلا عظيما ويمد لأرض كلها . فإن هذا الذي حدث بعد انتشار الدعوة محمدية . فإن رسول الكرم وصحابته هزموا فيصر وكسروا وأصبح مسلمون قادة للعالم المعمور كله في ذلك العصر . وصار سحر جبلا عظيما فقل زمام العالم في أيدي أتباع محمد ألف سنة

ثم تم نبوءات العهد القديم نبوءات العهد الجديد . ويستشهد جماعة الأحمدية بالأصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متى حيث يقول السيد المسيح : « اسمعوا مثلاً آخر . كان إنسان رب بيت حرم كرمًا وإحاطه سياج وحفر فيها معصرة وبني برجًا وسلمه إلى الكرمين وسافر ولا قرب وقت الإثمار أرسل عبده إلى الكرمين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبدة وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجعوا بعضا . ثم أرسل إليه ابنه أحيرا قائلاً إهم يهابون ابني . فأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا في

بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله وتأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وفتوه ، فتي جاء صاحب الكرم فذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ قالوا له أنه يهلك أولئك الأعداء هلاكاً رديناً ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها . . قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب أن الحجر الذي رفضه البنامون قد صار رأس الزاوية ؟ . . من قبل الرب كان هذا هو عجيب في أعيننا . . لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يترع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترفض ومن سقط هو عليه يسحقه . ولا سمع الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم ، وإذا كانوا يريدون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه عددهم مثل نبي .

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن فيقولون إن السيد المسيح قد لخص به تاريخ الأنبياء والرسل أجمعين . فالكرم هو الدنيا والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشري الكادح في دنياه ، والثمار التي يريد صاحب الكرم أن يجمعها هي ثمرات الفضيلة والخير والتقوى . والخدم الموفدون من صاحب الكرم إلى الكرامين هم الرسل والأنبياء . ولما جاءهم السيد المسيح بعد اعراضهم عن الرسل والأنبياء فغدروا به وأنكروه عوقبوا بتسليم الكرم إلى كرامين آخرين وترع ملكوت الله منهم لتعطاه الأمة الأخرى الموعودة بالركة مع أمة إسحاق ، وهى أمة إسماعيل ونبيها العظيم محمد عليه السلام ، وهو الذى يصدق عليه وعلى قومه أنهم كانوا الحجر المرفوض فأصبح هذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رفضه ومن أصيب به فهو كذلك مريض .

وتتلو هذه النبوة في إنجيل متى نبوة متممة من الإنجيل نفسه جب جاء في الإصحاح الثالث والعشرين منه خطاباً لى إسرائيل . هو ذا يتكم بترك لكم خراباً ، لأنى أقول لكم إكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب .

وفي الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا نبأ يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان مع الكهنة والنلايين . إذ سأله من أنت ؟ فأعترف ولم يكر وقال إنى لست المسيح . فسأله : إذن ماذا ؟ أنت إيليا ؟ فقال لا . قالوا : أنت النبي ؟ فأجاب : لا فقالوا له : من أنت لتعطى جواباً للنبيين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : أنا صوت صارخ في البرية . قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبى .

رغم أصحاب المقدمة لترجمة القرآنية على هذه النبوءات فيقولونها كانت ثلاثاً في عصر الميلاد المسيحى كما هو واضح من الأسئلة والأجوبة : نبوة عن عودة السيد المسيح ، ونبوة عن نبي موعود غير إيليا والسيد المسيح .

وقد أعلن السيد المسيح كما جاء في الأصحاح الحادى عشر من إنجيل متى : . . أن جميع الأنبياء والاموس إلى يوحنا تنبأوا ، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا لى يحيى المغتسل هو إيليا المزمع أن يأتى .

وواضح من الأصحاح الأول من إنجيل لوقا أن الملك بشر وكرنا بأن امرأته ستلد له ولدا وتسميه يوحنا . . وأنه يكون عصباً أمام الرب لا يشرب خمر ولا مسكراً ويمتلئ من بطن أمه بالروح القدس ويرد

كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم ، ويتقدم أمامه مروح إيليا وفري
ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء .

وفي الأصحاح التاسع من إنجيل مرقس يقول السيد المسيح : « يا
إيليا أيضاً قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه . »

وينكرر ذلك في إنجيل متى إذ يقول : « إن إيليا قد جاء ولم يعرفوا
بل عملوا به كل ما أرادوا . »

فالنبي إيليا قد تقدم إذن في عصر البلاد ، وقد جاء به المسيح أيضاً
ثم بنى اتحي الموعود . ولم يظهر بعد السيد المسيح بنى صدف عنه
الصفات المتعددة غير محمد عليه السلام ، وكلام السيد المسيح في
الأصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا بين للتلاميذ « أنه خير لكم أن
أطلق لأنه إن لم أطلق لا يأتيكم المزي . ولكن إن دعت أرمه
إليكم ، ومتى جاء ذلك يكت العالم على خطيئة وعلى يرو على دينونة .
فأما على خطيئة فلاهم لا يؤمنون بي ، وأما على يرفلأني ذاهب إلى أبي
ولا تروني أيضاً ، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دبر . ول
لدى نور كثيرة أقوما لكم ولكن لا تستطيعون أن تحملوه الآن . وأما
متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق جميعه . لأنه لا يشكم
من نفسه بل كان ما يسمع ينكلم به . ويغيركم بأمر آتية . ذلك بمحمد
لأنه يأخذ مما لي ويغيركم . وكل ما أتت فهو قد فات به أحد
مالي ويغيركم وبعد قليل لا تبصروننى . . . »

وقد جاء نبي الإسلام محمداً للسيد المسيح يسميه روح الله ويعبد
رسالته لأنها رسالة الله .

وبعد تأويلات شتى من قبيل ما تقدم تختم الجماعة الأحمدية بنها
بالإشارة إلى ما جاء في الأصحاح الثالث من أعمال الرسل الذي يسر
عن تنابع النبوات من صمويل إلى السيد المسيح بظهور نبي كموسى
الكلم صاحب شريعة يعقن الوعد لأبناء إبراهيم ويبارك جميع قبائل
الأرض . ويكون هذا النبي من إخوة بني إسرائيل لا منهم . فهو من
درية إسماعيل لا من ذرية إسحاق .

إن أبناء الهند وأبناء فارس - كما قدمنا - قد توفروا على هذا
الدأب في استخراج خفايا الكتب والخروف والمقابلة بين المصدين
والتأويلات وإنهم أجروا بها بحراً متفرقة في شتى المصادر والروايات ،
ولكنهم لم ينفردوا بالنسب في هذه النبوات وهذه الطوائف خاصة
وجاراهم فيها الباحثون من سائر الأمم واجتمعت في كتاب « فتح شكك
العلام في بشائر دين الإسلام » متفرقة لم ترد بها أسلف من
البحوث الهندية ، أو وردت عن منبع غير منبعها ، تلخص بعضه فيما
يلي ولا تستقصيه لأنه يقع في أكثر من مائتين وستين صفحة

ويستند المؤلفان على الأصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين
إذ جاء فيه أن أبناء إسماعيل مكثوا « من حويلة إلى شور التي أمام مصر
حباً نجى » نحو آشور فهم إذن سكان الحجاز لأن الحجاز هو الأرض
التي بين آشور وحويلة إذ كانت حويلة في اليمن كما جاء في الأصحاح
العاشر « إن بقطان ولد الوداد ، وشالف ، وحضرموت ، وبرزح ،

(١) المؤلفين الاستاذين أحمد زحجان ومحمد حبيب

من هذه المقدمات : وبها يمكن من رأى القارئ في هذا العصر والرأى الذى رآه الناس منذ أوف السنين ولا يزالون يرونه لا بد أن يكون له مكانه التاريخى ودلائله النفسية في هذا السياق

ولسنا هنا بصدد الإسهاب والتفصيل في نقد الأساليب التى يعتمدها الباحثون في حل الرموز أو خلق هذه الرموز على الأصح في بعض الأحيان ، لكننا نرجز فنقصر التعقيب على مقطع الآراء الذى لا يطول عليه خلاف بين المنصفين ، فكل من راجع العلامات النبوية في كتب البيانات من أنعمها قبل موسى وعيسى ومحمد عليه السلام إلى يومنا هذا يرى ولا شك أن العلامات التى لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافا واستكراها للألفاظ والتركيب على غير معانيها ، وإنما ننظر إليها على كل احتمال مفروض فلا نرى أنها تغنى عن الدلائل الكونية ولا نعيم أن قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند أحد من المسلمين الأولين أو عند أحد من الذين دانوا بالإسلام في الزمن الحديث

فإذا فرضنا أن النخريج صحيح في كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم فإن هذه العلامات لم تنفع أحدا من الذين كانوا يقرءون التوراة في عهد الدعوة المحمدية ولم يعلم لهم موقفا من الدعوة خير اللجاجة والمكابرة والاشتداد في الإنكار على نحو لم تعلمه من الجاهليين والذين لم يظلموا على حرف من كتب العهد القديم . وإذا قدرنا أن هذه العلامات لم ترد قط في كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة أو يصددها عن طريقها أو يسلبها وسيلة من وسائل الإقناع والذبيوع التى اعتمدت عليها .

هذا على تقدير الصحة والصواب في كل نخريج وإن كان علامة المذكورة مشروحة . فأم على غير هذا التقدير فلا حاجة بنا إذن إلى تعقيب حويل أو نصير

ولاندع الكلام على اشياء الغيبة حتى نقرر فيها الرأى الذى يسلمه المنصفون ولا يخفى أحد على إنكاره باسم العلم أو باسم المطلق أو باسم المياس الصحيح

و من أحد يخبر على أن يقول - باسم العلم - إن الإلهام بالغيب مستحيل . لأنه إذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة لا يستطيع عالم أمين أن يقررها معتمدا على حجة أو سند قوي . يجب على العالم الذى يجزم باستحالة الإلهام بالغيب أن يقرر لنا أنه عرف حقيقة الزمن وعرف - من ثم - حقيقة المستقبل . ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد السكون من عصر لعق غير عقل الإنسان وحيوان فما هي حقيقة الزمن ؟ هل هو موجود في الماضي والحاضر والمستقبل أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول ؟ وما هي هذه اللحظة الواحدة ؟ وما مدى إحاطتها بالبعد والقرب من لأمكنة الشاسعة في هذه الأمكنة ؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ وكيف يوجد العدم بعد أن لم يكن له وجود ؟

إن العالم الذى يجزم في قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على تعلم كذبا ويتم على عقل ضيق لا يصلح للمظرف في هذه الآفاق

فإذا كنت لا تنق وجود المستقبل بقيا مقطوعا به مستندا إلى حجة أو بية فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل في باب المنوعات أو غير المقولات

وإذا كان مصر العقل في هذه المكون أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان حائر على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول . ولا ندعى أن الانتقال المكرى بين عقول الناس قد ثبت في هذا الزمن ثبوتاً قاطعاً في جميع التجارب والمحاولات . فإن هذا الانتقال - المسمى بالثبوتية - بصيب وبخطئ وبكفى أنه لم يبطل كل البطلان باعتراف الملحددين والماديين إلى حائب المتدينين والمؤمنين

فإذا كان وجود المستقبل لم يبطل فكيف يبطل العلم بما يجرى فيه ؟ إنه قد يبطل إذا تحقق بالينة أن عنصر العقل وراء عقل الإنسان مستحيل ، فإذا كان وجود هذا العقل الأكبر لم يتنع ولم يدخل في باب المستحيلات فكل دعوى هذا للجزم بإنكار الغيب وإنكار العلم به أو الإجماع به إلى إنسان من الناس فإنما هي دعوى تهجم على الواقع ولا يمكن أن يقدل فيها إنها تهجم على النبوة والمجهرلات

فليكن مدان إذن في تخريجات الباحثين عن الطوائع والعلامات ما يكون ، فإن هذا الرأي لا يبطل الإيمان بلغيث إلا على لسان مجازف يخطئ بالقول حيث يجهل المدى الذي يتوخى فيه . وإنما نقبل تلك التخريجات أو لا نقبلها لأن الباحثين فيها أصابوا أو أخطأوا في التخرير والتأويل ، وإنما نقبلها أو لا نقبلها كره أخرى لأن قيام الدعوات النبوية مترقفة عنها أو غير مترقفة عليها بل ماض في سبيله عن اختلاف هذه

العلامات

أما الإنباء في الغيب بمشبهة العام به ولتقدير عليه فلا يمنعه علم ولا منطق ولا تجربة قاطعة من تجارب البيان

الأحوال العالمية قبل الدعوة المحمدية

مقدمات النبوة

والآن ، وقد أقررت الطوائع والعلامات في قرارها الذي يسهل الاتفاق عليه ، نضيق الأبواب الواسعة التي تتفتح أمامنا للبحث في مقدمات النبوة الإسلامية . وهي أبواب السحب في الخواص والجيبة والآيات الكونية . وليس أنت منها في مقام الكلام على النبوة الإسلامية صفة خاصة بين سائر النبوات

تاريخ العالم كنه - قيل عصر الدعوة الإسلامية - هو تاريخ هذه المقدمات حول بلاد العرب وفي صميم الجزيرة العربية من أجوافها إلى طرافها

فلم يكن للعالم كله في تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ولا يقال فيها بالإجمال إنها حالة فساد وانحلال فلا حالة للعلم ولا للعباسة ولا للأخلاق ولا للمرافق العامة لا توصف بتلك الصفة ولا تغلب فيها البسات كل الطلب على الجسات وإذا نظرنا إلى الأحوال في جيلنا وحدنا أنها هي الأحوال التي تنادى في كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية

إن ظاهرة واحدة كانت تنف تلك الظواهر جميعاً في طياتها ، وهي

فقدان الثقة بكل شيء ، ولا معنى لذلك في كلمة موجزة إلا أن الثقة هي المطلوبة . وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذي استشرى في كل مكان

ونبدأ بالأديان الكبرى التي شاعت في العالم المعمور قبيل الدعوة المحمدية . وهي على حسب قسمها : النجوسية واليهودية . مسيحية . فلم يكن أتباع دين من هذه الأديان على استقرار في عقيدتهم أو على ثقة بأخبارهم وأئمتهم ، وأولها وأشدها اضطراباً ديانة ادونة الفارسية أو دياناتها المتعددة التي نشطها الثوية أي الإيمون رب للنور ورب للظلام وعالم للخير وعالم للشر في كون واحد

فقد كانت هذه النجوسية تنمضي على الدعاة المصححين من أيام الوثنية الآرية الأولى التي اشتهرت فيها المنود والفارسيون . وقد عس « زرادشت » جهده لتطهيرها من الوثنية وإخلاؤها من شعائر الضالين والحاربيب الخفية فلم يتيسر له من ذلك غير القليل . وجاء بعده مصلحون من أتباعه مزجوا الفلك بالتحكيم بالخرافة بالعبادة في لغة واحدة . ولم يعرف الناس عنه على البعد إلى عصر الميلاد المسيحي إلا أنهم رصدوا للكواكب طلعة للخفايا والغيوب من وراء حجاب الظلام وقام « ماني » الذي تنسب إليه المانوية في القرن الثالث لميلاد فأرد أن يغلق باب الوثنية في الشرق ويرجع إلى ثوية قريبة من ثوية « زرادشت » وتوحيد الفلسفة العقلية . فحول قومه من الكتابة الهيولية إلى الكتابة الآرامية أو السامية ، وكاد أن يفلح في إقناع ولاية الأمر بآرائه في الإصلاح والتنزيه لو لم تفسدهم عليه دسائس لكهنة والوزراء ، فقفى في السجن وقبل إنهم سلخوا جلده وعلقوه مصوباً لسباع الطير

ثم كانت لطامة الكبرى في عهد قباد أنى كسرى أبرشوان الذي جهر بعنة النبو وتلقى رسالته بالسخط وأوجيد . .

في عهد قباد هذا ظهر ، مزدك ، داعية الإباحة والفوضى في الأموال والأعراض . ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثوية إلى التوحيد أو ما ينسب التوحيد . وقال كما قال « ماني » من قبله إن العالم كله في قبضة إله النور وإله الظلام . غير أنه زاد عليه ، إن النور يقوى بالقصد والاختيار وإن الظلمة تفعل على الخط والاندق . وإن النور عسى حساس والظلمة جاملة عمياء . وإن نزاج كان على الاتدق واخط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار ، وزعم مزدك هذا أنه جاء لينبسط الخلاف بين العقائد ولأهم وبنهاه عن الباطنة والقتل . وأنه ما كان كثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فقد أحل النساء وأباح الأموال وحمل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ . ورد نفوى الكونية إلى أربع هي التميز والفهم والحفظ والسرور . وكل منها يعمل بسبعة من الزرع يتبع التوزيع سهم اثني عشر روحانيون . . . وكل إنسان اجتمعت له أسرار الأربعة والسبعة والاثني عشر صار رانيا في العزة السفلى وارتفع عنه التكليف ، وإن ملك الملوك في العالم العلوى إنما يدير بالحروف التي يجمعها الاسم الأعظم ، ومن تصور من تلك الحروف شيئاً انفتح له السر الأكبر ومن حرم ذلك بقى في عمى الجهل والسيار والبلادة والغمر في مقالة القوى الأربع الروحانية (١) .

(١) الشهر ستاني في الملل والنحل .

ويقال عن مزدك هذا أنه كان عظيم الدهاء خبيرا بفتون الإقناع والإغواء . وإنه بلغ من سلطانه على قباز أنه أقتعه ببذل زوجته لمن يشئونها ليعلم الناس الصديق في إيمانه ويعتقدوا به في ترك التباغض والملاحاة على الأعراض والعروض فأوشك ناذ أن يفعل ما أوحاه إليه لولا أن علم ولي عهده كسرى فحلل عليه باكيا متصرعا يتوسل إليه إلا بذله هذا الإذلال وببذل أمه أمام الناس هذا الابتدال ، ثم تملأت عصبة ولي المهدي فقتلوه واعتبروا شيعته بالقمع والتشريد

وعلى الرغم من تنازع المصلحين الذين اجتهدوا غاية اجتهدهم في تطهير الديانة المجوسية من الوشية والمراسم الهيكلية لم تزل عقيدتهم جميعا في الأرواح والشياطين حاثلا بينهم وبين التوحيد بل حاثلا بينهم وبين الثنوية على بساطتها الأولى ، فإن موالات الأرواح ومحاذرة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من لعبادة والزلزلي لطوائف شتى من الإرباب الصغار عدا الإلهين الأقدمين إله النور وإله الظلام ، ولا يزال المجوس إلى اليوم يبدون صلاتهم بعد منتصف الليل ويقضون ساعات الصلاة الأولى في تلاوة الأناشيد التي يسرّضون بها شياطين الظلام . قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح

اليهودية والمسيحية

أما اليهودية فقد كان قيام المسيحية في معقلها الأكبر إيذانا حيا بنفاذها وانهايتها إلى الغاية من الجمود والفسيق . إذ كانت المسيحية في الواقع حركة إصلاح واسع في جميع العقائد اليهودية التي جمعت عن النصوص والمراسم ونحوها من الدين إلى نقيض الدين ، ولا شيء

يناقض الدين كما ناقضته تلك الأناية القومية التي حسبت الإله المعبود ملكا لها دون سائر عباد يبيع لها في سائر الأقوام مالا يباح في شريعة ولا منطق مستقيم

وفي عصر المبلاد نفسه ظهر من حكماء اليهود من أحس الحاجة إلى إصلاح عقائد قومه وشعائهم ، فاختار فيلون الحكيم أسلوب التعبير الرمزي لتفسير مسائل الكتاب التي لا تغلها الحكمة ، وكان مما بلغت النظر في هذا السدد أنه رجع إلى قصة إبراهيم وسارة وهاجر فعبّر عن أسلوبه بتعبير الرموز . لأن المسك الذي نسب فيها إلى إبراهيم لا يعقل من خليل الرحمن . عنده أن سارة هي الحكمة الإلهية وأن هاجر هي الدربة لدنيوية . وأن زواج الخليل من سارة لم يشر في أول الأمر لأنه لم ينضج به قبل النرس بمحائق الحياة . وقد كان هذا أسلوب الفلسفة لدى أدخله بولس الرسول في أسلوبه الديني فقال في رسالة غلاطية : « إنه مكتوب أنه كان لإبراهيم امان واحد من الجارية والآخر من احرة . لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد ، وأما الذي من الحرة فبالروح . وكل ذلك رمز . لأن هاتين هما المهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر . لأن هاجر جبل سيناء في العربية ، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستتبدة مع بنينا ، وأما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعا فهي حرة . . . »

وهذه ثورة على تفسير موعده إبراهيم بأسلوب العنسية والأناية تلفت النظر فيما نحن بصدده وتوحي إلى ما يأتي بعدها في الزمن المتناول . ثم سرى الإصلاح المسيحي مسراه ففضى معه من اليهود من صلح له وبقى الجاملون على شرمنا كانوا عليه قبل الدخيرة المسيحية ، وجي العناد

والإصرار على الباطن جنباته المعهودة فذهب وبيع الكهانة والمراسم
الهيكبية وتفرقت مراجع الديانة مع كل مجمع وكل معد وكل طائفة
ذات مذهب في التوراة أو التلمود أو تقاليد الأحرار والربانيين ، وكان
من آثار هدم الهيكل سنة سبعين للميلاد أن أشباعه فقدوا وحدة المراسم
بعد أن فقدوا وحدة العقيدة والروح ، ثم يأت عصر العلة المحمدية حتى
استفحل الخطب بينهم من جراء تفسيراتهم الكثيرة فهضت بينهم صلائع
الطائفة التي عرفت بعد ذلك بطائفة اقترائين ونكرت كل رأى غير
النصوص والحروف في الكتب المسبوبة إلى موسى الكلم ، فكان خوف
التفريق سبيل النكسة إلى آباء العقيدة ولأمانة القومية ولم يكن سبيلا إلى
الحرية والتجديد ، وما بلغت النظرة مرة أخرى أن إصلاح هذا الجمود
الجديد إنما أتى من قبل البلاد الإسلامية على يد سعدة مصرى وابن
ميمون الأندلسي ، وأن حكماء اليهود تفرقوا ثالث للهجرة لم يكن فهم
مذهب في تربية الإله غير مذهب علماء الكلام من المسلمين .

وكذلك كان يهود العامة في عصر النهضة العملية بين أشتات يذهب
كل منها مذهب على حسب المجمع أو المبدأ الذي يتبنى إليه ، وبين
شراذه متعنتين في الخمود على الحروف والنصوص يرجعون بهذه النكسة
إلى الداء الذي قامت المسيحية لإصلاحه قبل بضعة قرون ،
تلك حاجة جديدة إلى إصلاح جديد .

محنة المسيحية

وقد جاء الإسلام والمسيحية منتشرة في بلاد الدولة لرومانية شرقا
وغربا يدين بها ملوكها وزعمائها ومعظم رعابها ، وكان هؤلاء الملوك

ورؤساء قتل تنصرهم بغضهم للمسيحيين وبعذبونهم ولا يتورعون
عن لون من ألوان العذاب بما يؤده عليهم ، فكانت محنة عظيمة صمد
لمسيحيون الأولون صبر المؤمنين الصادقين ، ولكن هؤلاء الملوك والرؤساء
كانت محنتهم للمسيحية بعد تنصرهم أشد عليهم من محنة الاصطفاء
وتعذيب . لأنهم لم يكفوا عن الظلم وزادوا عليه عبت السياسة بأعدائهم
ولآراءهم ، فسموا مطامعهم بين المختلفين على تفسير المسيحية الأولى
وفروهم شيئا متناغضة متنافرة يرمى بعضها بالكفر والضلالة ،
وينشب بينها الجدل ولا تنفك على قول حتى تفتتح أمامها مذاهب
خلاف عن أقوال ، ولم يكن خلاف المذاهب يومئذ كحلاف
الآن . هذا العصر الحاضر يسمع بوجهات النظر ولا يستترجم طرد المخالفين
جميعا من حظيرة الدين ، بل كان بحث الآباء الأولين في سبيل الوصول
إلى أركان عقيدة وتقرر ما يسمى بالمسيحية وما لا ينسب إليها ،
بحسب من الكفر والضلال ، فلم تبق محلة من النحل الكثيرة إلا حركت
عن منافقها بالمرق والمزفة ، وتعددت هذه النحل بين الأريوسية
والنسطورية واليقونية والسكية عن تباعد الأقوال في الطبيعة الآنية
ومرتبة الأقانم الثلاثة منها . وبأنى النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية
يفتص على القية الباقية من الثقة والطمأنينة ، ولا بدع وكنا من أركان
العقيدة بمعدة من الجدل والانتقام ، فلا حرم يتردد على الألسنة
ويدون في كتب التاريخ يومئذ أن القوم جميعا قد استحقوا العقاب
الإلهي وأن أبناء إسماعيل قد جاءوا من الصحراء بأمر الله عقابا للظالمين
والمارقين

ويستطيع القارئ أن ترجم هذه البلبلة بمحاذات السياسة ومنازعات

العرش فلا يرى من حوادثها يومئذ إلا زعازع من هذا القليل على عروش الدول والإمارات وأوما عرش الأكاسرة وعرش القياصرة رؤساء أكبر الدول في ذلك الحين ، فلم يكن بين الملوك الخمسة أو الستة الذين تعاقبوا على عرش فارس أو عرش بيزنطية من مات حتف أنفه أو مات مستقرا على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح في السلطان على عرشه ، ولم يكن بينهم أحد كان له حق واضح في السلطان حين وثب عليه ، ويتقلب العرش بين الغاصبين فيفزع من كان آمنا ويأمن من كان مهددا أو مشردا في البلاد مع اختلاف الخطوة والتقمة بين الأنصار والمحصور ، فلما تبادى الأمر على ذلك عاما بعد عام لم يبق من يؤمن على نفسه وماله في زمن أنصار ولا زمن خصوم ، وعم الخوف أقرب الناس إلى السلطان وأبعدهم منه حتى جحد سيرة .

وتمت الحجة الكبرى بالقتال الدائم بين الدولتين ، فإذا بالبلد الواحد يتقلب في الحكم بين سيادة الفرس وسيادة الروم فلا تهدأ له حال في نظام ولا في سلام ولا في معاش يأمن الناس على مرافقه ومسالكة بين مبادئ القتال . وبطل الأمان كما بطل الإيمان ، فلا خلاصة لهذه الأحوال جميعا غير خلاصة واحدة هي ضياع الثقة بكل منظور ومستور ، فلا أمان من السياسة ولا من الدين ولا من لأحلاق ولا من الواقع ولا من الغيب .

هذه أحوال العالم وهذه هي مقدمات الدعوة الإسلامية بمن تلك الأحوال : مقدمات لا تأتي بتأنجها على وتيرة الداء الذي يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الإلهية التي تدبر الدواء للداء المستحكم على خير انتظار وبغير حساب . عام إذا صبح أن يقال عنه إنه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب فإنما كان ينتظر عناية من الله .

الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية

كان في الجزيرة العربية مجوس ويهود ونصارى . وعرف أبناء الجزيرة هذه الأديان من طريق القدوة الفردية في رحلاتهم ومبادلاتهم مع الأمم التي تحيط ببلادهم ، كما عرفوها من طريق الدعوة العامة التي يمزجها سلطان الرؤساء على نحو ما حدث في أرض غسان والحيرة ونجود .

ويقول ابن قتيبة إن الجوسية كانت معروفة في قبائل تميم ومنهم زرار بن عدس وابنه حاجب ، وقد تزوج ابنته ثم ندم وبنى أنها كانت شائعة بين قبائل البحرين عامة على مقربة من فارس . وأن لقيط بن زرار - كما جاء في ابن الأثير - تزوج بنته دخنوس وسمها بهذا الاسم الفارسي ومات عنها فقلا وهو يجود بنفسه :

يا ليت شعري عنك دخنوس
إذا نكحها الخير المرموس
أنحن لقرون أو نخسر
لا ، بل نخسر إنها عروس

والأغلب على النظر أن الجوسية شاعت في هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء أديان ولا نحت الأصنام . ولا يتكبرون في عبادتهم للنار شيئا لأن أشغال النيران للقرى والإستقاء وإشهار الحلف لم تكن مجهولة في البادية العربية ، ولعلمهم سبقوها إلى

عدوة على الكرك لا يه كونا حرج بن رصدا لاه واداه
بالبحر في ستر حتى جعلوا له من حصا من السور والاداء
وغيره من ارجحة في ستر اوقات اطلاق

ونقل احد منهم في يلك بلفت الى محمية الجوس الا حين يحدث
الروح باخريه في لا ينها عامة العرب . فاما فيما عدا ذلك فقد كانت
مراسم الدين عذت كغيرها من عادات ابدوة في الأعراس والمآتم
وتعظيم الأصنام والأرواح . لا ينكحها المحسني ولا اليهودي ولا
النصراني من عرب اهليلة

وقد كانت عرب انحرين له عرفوا المحمية فقد عرفوا القاصدين الذين
كثير يقبضون عن مقرة من بلادهم ولكنهم لم يقتدوا بهم في عقيدتهم
بكر فيهم القاصدين ما كانوا يؤمنون به مخالفا لما
حيوم . وقد كثير يرفقون كل دين في أشياء وبخلافه في أشياء .
ويحجون إلى مكة ويحجرون فلا يقبل إلى أسرىهم إلا من تعد
. من بلادهم
والظاهر من أقوال كتبتهم النقطية أن اصة بينهم وبين سبط الحجاز
شبه من بلادهم تلك اوتق وأقرب من بلادهم
انحرين وانحر من ادية . وهذا واحد فبه من يتسمى إلى حد بسموه
كاض من تاريخ بنعير . أنه أخو إبراهيم الخليل . وكيفما كانت علاقة
لعرب بنو من عذة فم توحد بين العرب قبيلة كبيرة تدعى علة الصابئة
كم دت تم . محمية . لأن هذه الملة الصابئة بطبيعتها لا تتقبل إلى

خاتمة كبيرة بعبد من موشا موارد ماء . وإنما يتقبل بها فرد أو
فرد بفصلون عقيدتها عن العقائد الوثنية من حولها . ولا يخفى شأن
الارتباط بالمكان في العقيدة الصابئة . فإن اشتراط القرب من الماء
فريضة من فرائضهم العامة . واسمهم الأول في أصله مأخوذ من سبع لا
من سبأ التي يتسمى إليها بعض قبائل اليمن ولا من صابئ بمعنى ارتد عن
الدين . وذلك أرجح الآراء فيما قيل عن اصول هذه الأسماء

وكانت اليهودية أعم انتشارا في الجزيرة العربية من المسيحية . لأن
بحمية بقيت محصورة في عشاير من غرب من سكان يدي بحرین .
ولكن اليهود كانوا يهاجرون بحملة قبائلهم من أرض كنعان كما أصابهم
قمع واشتريد من قانع حديد . وقد دحر بنو النضير وبنو قريظة وبنو
سدة حملة واحدة إلى يثرب على رواية أخرى . بعد أن صيرت الروم
على بني إسرائيل جميعا بالنام .

قال صاحب الأغاني لما قدم بنو النضير وقريظة ومكة المدينة
نزلوا الغابة فوجدوها وبيتة فكرموها وبعثوا رالدا أمروه أن ينسحب
نزلوا سواها . فخرج حتى أتى العالبة . وهي طحان وميزور . ودين
من حرة على تلاء أرض عذبة بها مياه عذبة نبت حر الشعير فخرج إليهم
فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها إلى حرة يصب فيه وديان عن
تلاء عذبة ومدرة طيبة في متأخر الحرة فنحول القوم إليها في متروهم فنزل
بنو النضير ومن معهم على مهزور وكانت فم تلاءه وما أتى من بعث
وسموات فكان لمن يسكن المدينة . حتى نزلوا الأوس وحزرج . من
قائل بني إسرائيل بنو عكرمة وبنو نطلة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو ريد

وبنو النضير وبنو قريظة وبنو جهنم وبنو عوف وبنو المقصص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيه الشرف والثروة والعز على سائر اليهود . . . وكان هناك معهم من غريبى إسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حتى من اليمن وبنو مرند حتى من بل وبنو نيف حتى من بل أيضا وبنو معاوية حتى من بنى سلمة من بنى الحارث بن منة وبنو الشظبة حتى من غسان .

ولم ينزل اليهود بغير المدن والقرى التي تحميهم بها الأطام والأبنية . فزلوا تيماء وقدك وخيبر واشتغلوا بالتجارة والصناعة في المدن وزرعوا الأرض حولها للمرحى والاتجار بمحاصيلها . واختاروا من التجارة أسرها على غير المخاريب لأنهم لم يقدروا على حراسة القوافل الكبيرة التي كانت تحمل أحيانا - كم جاء في الخبر - على أكثر من ألفي جمل فاستعملوا المال وشاركوا في قروض ثرى وبساطات ولم ينسوا قط أنهم غرما في بلد غريب . واجتهدوا المرحمة في التجارة فلم يكن لهم شأن بمكة دون سائر المدن لأنها كانت مستقرة بالتحارة عن طريقها في أيدي قريش . ولكن يقال في روايات غير حاسمة أن بعضا من غنم وكثافة وكندة وبنى الحارث عرفت اليهودية من جوارها بطريق المدن التي سكنا

يهود

وموضع النظر الكثير ما يقال عن دخول اليهودية إلى اليمن وقيام دولة يهودية فيها بأمر ذرعة المكى بلدى تيس . فلا خلاف في وجود اليهود في عرب الجنوب من أهل اليمن . ولكن الخلاف في تاريخ دخول اليهودية تلك البلاد ووسيلة دخولها . لأن المهود في بنى إسرائيل متأخرين أنهم كانوا لا يدهون أحدا إلى دخول دينهم لإيتارهم أنفسهم

معد إبراهيم الخليل وحصر هذا الوعد في ذرية إسحاق بن يعقوب . وقد حدث في عهد هركانوس الأول المكابى أنه أغار على الأدوميين وأكرههم على اليهود فهودوا وقامت منهم دولة هيرو حليفة الرومان . وكان ذلك في واحة القرن الثانى قبل الميلاد حين صعد بنان اليهود رجعة الدولة النيبوية إلى أرض الموعد . وكان تدبرا حربيا سبب دعت إليه الرغبة في تأمين الطريق ومخالفة الرومان لدوره الحصر من ناحية فارس وحفاتها من جانب الصحراء . فإذا كان اليهود قد أكرهوا قبائل اليمن على اليهود فمن أين لهم القوة التي تصارع قوة المكابيين في الشام وفلسطين ؟ وإذا كانوا قد هودوا تلك القبائل بالتبشير والإنقاذ فكيف قبلوا أن يشركوا معهم أناسا من المطرودين الغرومين في وعد إبراهيم الخليل .

إن الاحتمال الراجح بين هذه التناقض أن اليهود وصنو إلى اليمن مهاجرين متفرقين . وربما بدأت هذه الهجرة من أيام السبي إلى قرب بابل من طريق البحرين إلى اليمن . فإن لم تكن موجلة هذا لايقال في القده فقد يكون مبدؤها عند تثبيت اليهود في أوائل القرن الثانى قبل الميلاد . ثم استمرت نحو ثلثة مئة سنة إلى أواخر الدولة الحميرية . ثم وجد اليهود اخميريون أنفسهم معرضين لخطر واحد امام تحالف الحبشة والروم ونصارى اليمن شجران وغير شجران . ففقدوا الحلف المقابل لهذا الحلف بينهم وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطي الشرقية .

ومن المعلوم أن الدولة الفارسية كانت تنازع الحبشة والروم في أرض اليمن . وكانت ترحب في بلادها باليهود بعد انقلابهم على الدولة

الرومانية واشتباوهم بمعاداتها وموالاة أعدائها ، وكانت ترحب بالنصري الذين اضطهدهم الرومان الوثنيون . ولم تول ترحب بعد ذلك بالنصري من أتباع المذاهب التي وقع عليها التحريم والتشريد بعد تنصر العوהל الشرقيين في القسطنطينية . ولم تقبل نصارى الخيرة إلا لعلمها بنافسهم لنصارى غسان من أتباع الرومان وثباتهم إلى مذهب النسطوريين

فالدولة الحسرية على عهد ذي نواس لم تكن دولة يهودية بئسها اليهود وبدخلوها معهم في عداد شعب الله المختار . ولكنها كانت تحالف اليهود وتعمل على الاشهار بمخالفتهم لإفئاع فارس بولانيها والتزاع بينها وبين الحبشة والروم . واشتهرت من ثمة باليهود لأنها أيدت اليهود وتشكرت للنصارى حذرا من معاونتهم - خفية أو جهرة - لشركائهم في العقيدة أبناء الحبشة . ولو كان اليهود هم القوة التي قامت عليها دولة حمير لما صاروا إلى القلة التي غمرتها الكثرة العربية في القرن الخامس لمسيحي

وأيا كان تاريخ اليهودية في اليمن وفي بلاد العرب عامة فإنها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للصلاح والإصلاح . ولم تكن يهودية معترفا بها بين بني إسرائيل في غير الجزيرة العربية . وقد نقل الدكتور إسرائيل ولفسون صاحب كتاب « تاريخ اليهود في بلاد العرب » رأيا فيهم لليهود دمشق وحلب . رواه جريتر Graetz فقال : « إهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية ويقولون إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خبير ليسوا يهودا حقا إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود حضوعا تاما . وأن العالم شريك في اعتقاد أن

اليهودية في بلاد العرب كانت له صفة خاصة ، فقد كانت يهودية في أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون اليهودي »

ولا يمنع هذا أن يكون يهود يثرب رأى في أنفسهم غير رأى إخوانهم الدمشقيين والخليبيين . فقد روى أوليري Oleary في كتابه عن بلاد العرب هل محمد « أن بني النضير بنى قرية كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنين ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون . وأما ياقوت فإنه يقول أن يهود يثرب عرب يهودوا . وقد يخطر لنا أن بني قينقاع كانوا من عرب شمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا إلى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على عهد هادريان سنة مائة واثنين وثلاثين »

عن أن الصيغة اليهودية التي بقيت مع يهود يثرب في معيشتهم وصنائعهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآلهة - أدن عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين . وما شب قينقاع أن ترجع في أصلها إلى كوهنكا ؟ وما أبعد اسم النضير من أسماء العرب الأقدمين ! . لقد قبل إهم بطن من بطون جناء من أبناء عم الحميين . فهل كاد في جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب ؟ وهل كان في وسمهم أن يشكروا المدرسة العبرية التي ظلت في عصر لدعوة الحمالية يسميها العرب بيت المدارس ويسمونها اليهود (بيت هام مدراس) ؟

وقد كان يحس هؤلاء اليهود أثر في مقدمات الدعوة الدينية . أو مقدمات النهضة القومية الإنسانية بعبارة أخرى لو أنهم أقادوا العرب .

حولهم دروساً في التفكير والأخلاق تكشف ضم عن سخف الجاهلية وتبين ضآلتهم لما هو أصح منها وأقرب إلى التقدم والهداة . هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يفتدون بها في معاملاتهم وعلاقة بعضهم ببعض في السلم والحرب والمخالفة والمخالفة .

ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك وصنعوا في أكثر الأحيان تقيض هذا وذلك . لأنهم لم يكثروا لأمر اليهود من قبائل العرب إلا ليتبعوا بولائهم وحراسهم لتجارهم في الطريق . فلم يكن بين الجاهليين اليهوديين وجاهليين الوثنيين فرق في العادات والأخلاق إلا أن يكون فوق الشجاعة والرجولة في جانب الوثنيين يمتازون به على الدين تعودوا للبلاد بالأطام والنمق في حريمهم وسلمهم بذرف المسامحة والتفاني .

وقد كان يهود يثرب قدوة سيرة في كل علاقة بينهم وبين العرب أو بينهم وبين أنفسهم في جوار المدينة . فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الإيقاع بينها وإثارة الأحقاد في المتخاصمين كم جنحوا إلى انسيان وتعاقدوا على الصلح والأمان . ويرى اليهود أنفسهم دائميي القديم من الشقاق والمساكنة حيثما اجتمعوا في مكان واحد . قدبت خصومة بين بني قينقاع من جانب وبين بني النضير وبين قريظة من الجانب الآخر . ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شيء غير حسمهم لبني قينقاع وعملهم على الوقعة بين قبائل الأوس والخزرج وهي كثيرة في جوار المدينة . وقد كانوا ينفسون على بني قينقاع أنهم كانوا يقيمون في نصورهم داخل المدينة ولا مأوى لبني قريظة غير ضاحية لمشرق ولا لبني نضير غير ضاحية لمغرب . فلما نشبت الحرب بين الأوس والخزرج نفرت

ليهود بين الحزبين فكان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس . ولم يتحرك أحد من النضيريين وقريظيين لنصرة بني قينقاع حين أجلاهم المسلمون عن المدينة . ولا تحرك أحد من قريظيين ونصرة النضيريين حين قضى عليهم بالجلاء لغدرهم الذي عليه السلام يصعد أحدهم - عمر بن جحاش - على جدار يحبس النبي تحت ليلتي عليه بصخرة من أعلاه . . . وإنما وصفهم الآية بوصفهم هذا حيث جاء في القرآن الكريم من سورة الحشر أنهم « لا يقاتلونكم جميعاً إلا في نري محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديدة تخسهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

وليس في خليفة من هذه الخلائق قدوة صالحة نعلم الجاهليين ما يحسن بهم أن يتعلموه وينتدوا به إلى صريق مستقيم .

ولقد عاش يهود يثرب ما عاشوا في جزيرة العرب ولم يؤثر عنهم قط سعي في سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من لربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة . فلما جهر للنبي بدعوته حذلوهم من مبدأ الأمر وأوقدوا وفودهم إلى كفار قريظة . يمرضون عليهم المازرة والمخافة واتخذوا حطيمهم التي تاوروا عليها بعد ذلك ولم يعدلوا عنها إلى حين إجلائهم عن حدود الجزيرة ، وخلاصة هذه الحطة تبيت الوثنية الجاهلية وإثارةها على دعوة التوحيد واتزيمه التي جاءت بها رسالة الإسلام وشملت بها معظم العقائد الكسبية وعقائد التوحيد حملة منذ عهد إبراهيم الخليل . وكان في سعيهم للتأليب على هذه الدعوة بعض الأناة والحيلة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة . لأنهم

كانوا يترافعون في مساعيهم بين اخذ من عاقبة الدعوة وبين الأمل في
النصاء على تجارة قريش واغراضهم بعد قريش بتجارة الحجاز كنه من
اليمن إلى مكة إلى المدينة إلى الشام . فلما هاجر المسلمون القرشيين إلى
المدينة وأقاموا خم سوقا يتوار سوق اليهود أرادوا ان يفسدوا كل ما صنعه
الإسلام حتى الصلح بين الأوس والخزرج والوفاة بين المهاجرين
والأنصار . واستأسوا في الكيد والفساد ولم يحرصوا على شيء غير
استنفاء الربح والتأليب على كل إصلاح وكل مصلحة في غير هذا
سبيل

فإذا كان لليهود يثرب أثر في مقدمات الدعوة المحمدية فهو أثر أسوأ
من أثر الجاهليين في المقاومة والعتاد . وإذا استفاد الباحث من تاريخ
هؤلاء القوم توضيحا لثلاث المقدمات فإنما تأتي هذه الفائدة من جانب
آخر لا فضل لهم فيه . فإنهم كانوا نصيحيا علميا لأخطاء المستشرقين
الذين أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الإسلام في عصر المملكات
والمقائد الجاهلية . وقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة
الإسلامية التي خاطبت العرب جميعا بلسان يعرفونه من قبل عصر
الإسلام . فجاء بعض المستشرقين بهم من أوهامهم يشككون في وحدة
هذه اللغة وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين
والنكبين . وزعموا أن وحدة هذه اللغة ممنوعة لاختلاف لسان العدنانيين
والقحطانيين .

فاليهود في يثرب أصدق جواب على هذه الأوهام لأنهم غرباء عن
الجزيرة العربية دخلوها في القرن الأول أو الثاني للميلاد . ولا يجوز
الشك في ذلك ولا القول بأنهم عرب تهودوا كما قال بعض المؤرخين على

غير علم ولا رواية فيما يصح أن يقال . فإن القول بذلك يستلزم منا أن
نفرض أن العرب الأسيين تعرضوا للتحويل إلى اليهودية ثم تنصروا العربية
وتفقهوا في كتب التوراة لينفصلوا عن أسلافهم وينصروا إلى قوم
مخدولين في بلادهم لا يسلمون لأحد من الأمم بأنه أهل للدخول
معهم في عداد شعب الله المختار . فهذا من أعجب الفروض التي لا تثبت
بغير دليل قاطع فضلا عن اثبت بغير دليل . وليس في محنة اليهود من
فلسطين إلى بلاد العرب عراة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تثبتهم في
القرن الأول أو الثاني للميلاد . وقد كان مقامهم على الطريق بين تيماء
والمدينة للتجارة والزراعة والاشتغال بغير صناعات القبائل العربية أشبه
شيء أن يكون على تلك الطريق خاصة دون الطريق الأخرى التي يحميها
النسط وقريش ولا يستطيع لليهود المهاجرون أن يقتحموها على أصحابها
وهم مشردون مستضعفون . مع العداء بينهم وبين النبطيين وتمصب
النبطيين عن إسرائيل ديناً ولغة وميلاً في السياسة والولاء وعلى جميع هذه
الفروض التي لا تقبل الشك نرى هناك الحقيقة التي لا تختلف مع :
اختلاف القول في أصول يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادي القرى على
الإجمال .

فهل هؤلاء عرب يكتبون ؟

لو كانوا كذلك لقد كانوا خلفاء أن يحفظوا في صحفهم كلاماً
عربياً مما لبل الإسلام بثلاثة قرون يخالف العربية الموحدة في عصر
الإسلام . إن صح أن العربية لم تكن موحدة في أيام شعراء المملكات .
وبعض هؤلاء الشعراء لم يسبقوا عصر الإسلام بأكثر من مائة عام .

وكانوا خلفاء أن يحفظوا بالكتابة لعربية فجأة غير المهجة الموحدة التي يشك المستشرقون في سبقها للإسلام أي عصر أولئك الشعراء .
أو كانوا خلفاء أن نعلم من كتابتهم شيئا يزيد ذلك الشك نوعا من التأييد

أما إذا كانوا على القول الراجح - بل المذموم - يهودا دخلوا الجزيرة بلسان غير لسانها . وتكلموا الآرامية أو الأدمية أو العبرية ثم تعلموا اللغة العربية الحجازية فهنا التوحيد الذي تم بين اللغة الحجازية وبين الآرامية أو الأدمية أو العبرية ليس بالمستغرب أن يتم بين لغة العرب في الجنوب ولهجة العرب في الحجاز وسائر أطراف الجزيرة . فقد جاء عرب اليمن في الجزيرة واتصلوا بالحجاز ومنا أصول جدا من مقام اليهود المهاجرين منذ القرن الأول أو الثاني للميلاد .

وله بعض الباحثين من لغة اليهود الذين أقاموا بجوار الجزيرة أو اليهود الذين تحالفت معهم ذونواس في نجران . ولكن اليهود الذين وفدوا إلى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العنانيين . وكان منهم كعب بن ماعة الحميري الملقب بكعب الأخبار . وكان منهم وهب بن منبه الصنعائي الذي قال ابن خلكان أنه رأى كتابا له عن ملك حمير وأخبارهم وأشعارهم في مجلد واحد ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد . وقد كان كعب وهب من الغربيين في طلب النوادر فلم يذكرنا لنا شهادته . أو شهادته آمازهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش بجهيزة في اليمن وما حاوروا . وأدى من ذلك إلى عصر البعثة قدوم الرقود من اليمن إلى

الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز إلى اليمن بإذن النبي عليه السلام . ومنهم معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب ومن كان يصحبها في عمل الولاية والتعلم . فلم نسمع أن وفود اليمن على النبي جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز . ومؤلا قد لقنوا لغاتهم من آباؤهم فلا يفهم ما اختلف من كلامهم إذا كان ثمة اختلاف .

وأقدم من البعثة الحميرية رحلة الصيف ورحلة الشتاء . وليس في أخبار هذه الرحلات إلماع إلى تفاهم قريش مع أهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية في الجبل السابق للبعثة والجبل الذي تقدمه . ومن البعيد جدا أن ينسب عن ذاكرة العرب حديث جبلين قبل قبيلة وقد كانت أخبارهم ورواياتهم وأنسابهم وأمثالهم كلها قائمة على الحفظ ونسب الرواية والإسناد من جبل إلى جبل . فإذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة في عصر البعثة الحميرية فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا الشروع وهذا التعميم . ونرجع في هذه الأجيال إلى أقدم لأوقات التي أسند إليها نظم المعلقة فلا تستغرب نظمها باللغة التي يفهمها العرب من الجنوب إلى الشمال

ولقد سمع النبي عليه السلام قصيدة كعب بن زهير . وقد نظمها ولا شك بلغة أبيه زهير بن أبي سلمى . وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقة إلى النظم بتلك اللغة . ولا يمتثل أن يكون التغير في النظم قد طرأ عليهم فجأة في مدى سنوات معدودات . فإذا بلغنا بالمعلقة عصر هرم بن سنان - ممدوح زهير - وما تقدمه بقليل فليس من شعراء المعلقة من هو أقدم من ذلك بزمان طويل يتمتع فيه التوفيق على النظم الواحد واللغة الواحدة . ولا بد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لا تخلق

بين يرم ولبنة ، وأن وزن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدنا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيها لقائد جيل أو جيلين على الأقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة المحجارية لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومناه .

ومن عصف القوم ولا ريب أن نجزم بامتناع مجرة اليمانية إلى ما وراء حدود اليمن في الجزيرة العربية ، فإذا جاز أن تهاجر منه قبيلة واحدة فحكم القبيصة في مسألة اللغة كحكم القائل العشر أو العشرين . ولن شاء أن ينكر نسبة الكريين أو القليلين أو القساسة إلى اليمن مستندا إلى الدليل أو غير مستند إلى دليل على الإطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبته إلى اليمن وينكر نسبة اللغة العدنانية إليهم في وقت واحد . فإيه بذلك ينكر نسبته إلى كل أصل معروف في الجزيرة العربية ولا يأتي لهم بأصل غير تلك الأصول .

وأن من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها لينكر أمر غير قابل للإنكار في جزيرة العربية التي لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تاريخ الرحلات على تباعد الأزمنة ونسب العوارض الجوية وطوائف الخصب والجديب والقلبة والحزبة . وما من باحث ذي روية يعترف بتلك الإنكار ثم يجزم بمصر اليمانية في حدودهم منذ انحطت بهم تلك الحدود . فن العسف أن يقال إن اليمانية لم ترح اليمن فقد في العصور التي سبقت البعثة المحمدية . وليس من العسف في شيء أن يقال إنها برحها على حسب الطوائف وعوامل الجبر والتاريخ ، ولا داعية بعد ذلك لاستغراب اتفاق بين اليمانية وأبناء الحجاز ونهامة وسائر الجزيرة في لهجة

من اللهجات . فما دمنا نقدر بحكم المداخلة أن اليمانية وجدوا في الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون في جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هنالك في الحقيقة مشكلة توال .

وليس أكثر من النصف الذي يلجأ إليه منكر الوحدة في لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية يميلين أو ثلاثة أجيال . وأن احتساف التاريخ هنا لأهون في رأينا من عتسف الفروض الأدبية التي لا تقبل التصديق ، فما من قارئ للأدب يسبح القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت إلينا ويفلحون في ذلك التفتيش . إذ معنى ذلك « أولا » أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التي بلغها امرؤ القيس والناخلة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر في الجاهلية . ومعنى ذلك « ثانيا » أنهم مقتدون على توزيع الأساليب على حسب الأمزجة والأعجاز والمساكن الأدبية . فينظمون بمزاج الدب طرفة ومزاج الشيخ زهير ومزاج العرید انخل امرؤ القيس ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد . وينحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويمعنون له القصائد على نمط واحد في الديوان الذي ينسب إليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توحد عند الرواة ولا توحد عند أحد من الشعراء ثم يفرض الرواة في سمعنا وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصل ، وما من ناقد يسبح هذا الموضع برهان فضلا عن إساعته بغير برهان وغير سبب إلا أن يتوهم ويعزى التوهم بالتخمين ، وإن تصديق النفاض الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقطة التي يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال .

وثن - مع هذا - النفاض التي يستدعيها العقل ويبحث عنها إذا

تفقدتها فلم يجدما ، والنقائص التي يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم .

فهذه النقائص التي تحاول أن تشككتنا في وحدة اللغة العربية قبل الإسلام برفضها العقل لأن قبولا يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالإقتناع .

فما يتكلفه العقل إذا تقبلها أن يميز - كما تقدم - بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وأن يميز بقاء لغة قحطانية تاخر اللغة القرشية في الجليلين السابقين للبعثة المحمدية غير معتمد على أثرى ذاكرة الأحياء ولا في رزق محفوظ ، وأن يلقى كل ما توارثه العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الأنساب وبقايا الأسلاف ، وأن يفترض وجود الرواة المتأمرين على الانتحال بتلك الملكة التي تنظم أبلغ الشعر وتترعه على حسب الأزمنة والسواحي النسبية والأعمار ، وأن يفهم أن القول المتحلل مقصور على الأسانيد العربية مبطل لمرجعها دون غيرها من مراجع الأمم التي صح عندها الكثير مما يخالف الانتحال والكذب الصريح .

ومن النقائص التي يستدعيها العقل ويستلزمه ويتخذ منها حجة الثبوت الواقع في جملته أن يحدث الاختلاف في الرواية وإن يتعذر فيها الإجماع بين الرواة ، فإن العقل لا يصدق الأقاويل التي يتفرق روايتها ويطول العهد عليها ويعمل عليها أصحابها على الذاكرة والإستاد ثم تأتي متفقة في الجملة وانتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الأهواء للاضطراب والحذف والإضافة عن قصد أو بفعل النسيان والإهمال

فاختلاف الرواة إذن سبب من أسباب التصديق ، وانفاقهم يدعو إلى الشك أو التكذيب .

وقد نسمع النقيضين في هذه الحالة فرفضها ولا نرفض لباب الخبر ومفراه . فقد سمعت أن عمرو بن كثوم أو الحارث بن حلزة التي قصيدته رقيقة واحدة ، وسمعت أن زهير بن أبي سلمى كان ينظم قصيدته ر الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحولييات ، وقد نسقط هذه المبالغة كما نسقط تلك ولا يلزم من ذلك أن تسقط الشعر الذي يروى في وقت نظمه بين أقصى الطرفين .

وراء وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر إلى الحقائق العصرية ونعلم أن تنقيحها في الزمن الماضي حد عسير ولو أراد الملقون ، فما يروى عن امرئ القيس أنه تعجب من إعراض النساء عنه مع وسامت ومكاته . وسأل إحدى النساء في ذلك فقالت له : نعم ، ولكن لك عرقا كان عرق كلب . ثم قرأ أخبار وفاته فنعمن منها إنه أصيب قبل موته بقروح تسقط منها جلده وسمى الحلة التي كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح ، ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدي لنسب رائحة العرق الذي يفرزه ، وأنه لم يزل حتى استشرى به الفساد في رحلته القصية فظهر في تلك القروح ، ويقرن ذلك بدوره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر عقيمة عليه في عيني امرأته . فلا يسهل على المناظر في جميع هذه الأخبار أن ينسب تلفيقها عمدا إلى رواية واحد ، ولا يسهل عليه أن يتقاما متفرقة ثم يجردها من الدلالة التي تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين .

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة ولم تكذب نصيبته التي تم في جعلها على خلائقه التي تنوب عن تلك الأخبار وتغنيها عن محاسبة الرواة هل التصديق أو على التكذيب .

وهذه القرائن الأدبية هي التي ينفل عنها المستشرقون ولا يفتنون لها لأنهم ينظرون في النصوص والإسناد ولا ينظرون في الأدب ولا في روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التي تنقلها حجر أمه . فليست معرفته باللغة العربية كافية له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق ، ومنهم علامة تصدى لوضع المعجمات لكبرى في اللغة العربية فكتب في مادة « أخذ » أنها تأتي بمعنى نام لقوله تعالى : « لا تأخذ سنة ولا نوم » . . . ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبي لعذراء لأنه كان والد الزوجة التي بنى بها النبي عليه السلام وهي عذراء . ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة أو مصر السعيدة Egypt

Felix نياساً على اليمن التي تسمى العربية السعيدة Arabia Felix

ومنهم من يقول إن التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها من لصحي . . . وما هي في وضعها إلا كالتغذية من الغداة والنعشبة من العشاء والسحور من السحر إلى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبايح بمبقاتها من الليل والنهار . . . ومنهم من يحسب أن القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذي يراد معناه !

وقد تصدت منهم لهذا البحث الذي نحن فيه عن اللغة قبل نزول القرآن طائفة تقتحم هذه المباحث وهي أجهل بالآنها من عامة الأمنيين .

فالدكتور منكلم شديبل Thudale صاحب كتاب مصباح الإسلام يرون شبهات النافدين للقرآن الكريم ، ومنها هذه الآيات :

دنت الساعة وانشق القمر عن خزال صاد قلبي ونفر
أحور قد حرت في أوصافه ناعس الطرف بعينه حور
مر يوم العيد زينتته فرمالى فتعاسى فمقر
بساه من خاط فائك فتركنى كنههم المختظر

ويشذ منها قرية فنباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين وبضيف الدكتور العلامة إلى هذه الآيات أبياناً أخرى كقول

أقبل وانعاشق من خلفه كأنهم من حذب ينسلون
وجاء يوم العيد في زينة مثل دا فليعمل العاملون

قال الدكتور : « ومن الحكايات المتداولة في عصرنا الحاضر أنه لما كانت فاطمة بنت محمد تلو هذه الآية وهي - اقترت الساعة وانشق القمر - سمعها بنت امرئ القيس وقالت لما إن هذه القطعة من قصائد أبي أخذها ولدت وادعى أن الله أنزلها عليه ، ومع أنه يمكن أن تكون هذه الرواية كاذبة لأن مرأ القيس توفي سنة ٥٤٠ م ولم يولد محمد إلا في سنة الفيل أي سنة ٥٧٠ م فلا ينكر أن هذه الآيات المذكورة واردة في سورة القمر وفي سورة الفصح وفي سورة الانبياء وفي سورة الصافات ؛ وغاية الأمر أنه يوجد اختلاف طفيف في اللفظ ولبس في المعنى ، فورد في القرآن اقترت وفي القصيدة دنت . . . ومن البين الواضح أنه

يوجد مناسبة ومثابة بين هذه الآيات وبين تلك الآيات الواردة في القرآن . فإذا ثبت أن هذه الآيات هي لامرئ القيس حقيقة محبتة بصحت على المسلم توضيح كيفية ورودها في القرآن لأنه يتعد على لإنسان أن آيات شاعر وثني كانت مسطورة في الموح المحفوظ قبل إنشاء العالم .

ثم قال الدكتور بطالب العلماء المسلمين مع المعترضين والمنشورين بأن قيموا الدليل على أن هذه الآيات مأخوذة ومقتبة من نقرآن وأنها ست من نظم امرئ القيس الذي توفي قبل مولد محمد ﷺ . ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن ناظم هذه القصائد بلغ إلى هذا حد من لهلك والاستخفاف والحرارة في أي زمن من الأزمان بعد تأسيس مملكة الإسلام . التي كانت منعة الأطراف ولاكتف حتى يفتس آيات من القرآن ويستعملها في مثل هذا الموضوع .

ثم يعمم الدكتور كلامه في هذه الشبهات مصطفة اخضر وحيثه لئلا يثبت نظم هذه الآيات بعد الإسلام فتسقط الشبهة كلها . فيقول إن هذه الآيات ليست كل ما يعرض به المنصوص لأن ما تقدم من الاستدلال كاف عندهم لتأييد هذه المقضية .

وأيسر ما يبلو من جهل هؤلاء الخاطئين في أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم - أنهم يحسون أن علماء المسلمين بلغون في بحث تلك الآيات وصبا وصبا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية

(١) من صفحة ٢٥ إلى صفحة ٢٩ من الترجمة العرب

ولا يلبهم الذوق الأدبي أن نظرة واحدة كافية لليقين وبإدخال نسب إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية وهذه النظرة الكافية هي التي تعني الناقدين المشرقين وهي أصل وثيق من أصول انتقد يعول عليه الناطق في الأدب كل التعويل . ولا قدح فيه أن يشع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ في القيل دون الكثير كذلك يشع ميل الجدل في إنكار خيرة الخبر بكتابة المخطوط . وكذلك يجوز الخطأ في محاكاة الكلمة أو بضع كلمات ولا يجوز في السطور والصفحات

فإذا طر خبير المخطوط في صفحة من الصفحات فقد تغيب نظره و احكم عليها بالصحة أو التزييف . وربما جاز عليه أمر الكلمة والكلمات إذا لم يكن أمامه غير هذه الكلمة أو هذه الكلمات للمقابلة والمضاهاة . ولكنه إذا حصل على تلك الكلمة المكتوبة عشر مرات أو عشرين مرة لم يكن من اليسر أن يصدق بها كما يصدق في الكلمة المفردة بعير تكرار . وعلى هذا المثال يبدو الصحيح والزيف في الشعر الأصل والشعر المدخول . وقد يجوز التزوير في الشطرة الواحدة أو البيت الواحد إذا امتعت المقارنة بين وبين أمثاله من تلفيق صاحب التزوير ، ولكنه لا يجوز إذا كرر المزور الآيات ومثلت للناظر الناقد طريفته في تزوير هذه الآيات المتفرقات .

تزوير الأدب الجاهل مستحيل

أما المستحيل ، أو شبه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب إلى الجاهلية ويصطغ في جملته بالصبغة التي تشمله على تباين الفاتلين

والشعراء ، فإذا جمعنا الشعر النرب إلى الجاهلية كله في ديوان واحد
لن المستحيل أو شبه المستحيل أن نجمع ديوانا بمائته من كلام العباسيين
وكلام المتأخرين ، وإذا نل افترق بين الشعر الأموي الأول والشعر
الجاهلي فتلك آية على صحة العلامات التي تميز الشعر الجاهلي وعلى
صحة القرابة بينه وبين الشعر الذي لم يفترق عنه افترقا بعيدا بزمانه وثقافته
قائله وبيئاتهم في المعيشة وتمامات التعبير . فلا يتشابه الشعر الجاهلي
والشعر المخضرم ، إن لم يكن بينها ميزان مشترك ، مع انتهائه إلى عشرات
الشعراء الجاهليين والمخضرمين

إن الملامح الشخصية التي تميز بين الفرزدق والأخطل وجريز لم يكن
لها ثبوت أوضح وأقوى من ثبوت الفوارق التي تميز بين امرئ القيس
وعمر بن كلثوم وزهير ، فمن يرى أن خلق دواوين الفرزدق والأخطل
وجريز وسع راوية واحد فقد سهل عليه أن ينسب شعر الجاهليين
جميعا لا سند له ولا ساهقة من مثله في آداب الأمم ولا نصيب له من
الدوق الأدبي غير النبو والاستغراب

وربما كان « سنكلر تدبيل » الذي مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة
واللوق الأدبي مثلا صارنا كما يقال في التعبير الحديث ، ولكن مثل
الصاروخ هو الذي يبرز الحقيقة ستعمية على اللبس والمكابرة ويحبط بما
دونه من الأمثلة التي ترد بين لثك واليقين ، وقد أثبتنا على طائفة منها
لا تتخلف عن المثل الصاروخ بشوط بعيد

سوء فهم وسوء نية

والمعروف في جماعة المستشرقين أن الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم
وسوء النية لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة البشريين الحرفين

أو ينظرون في بحوثهم نظرة الغري الذي ينظر إلى الشرق نظرة المتعالي
عليه في حاضره وماضيه . غير أنهم ماعدوا القليل منهم محدودون
سطحيين يعمون حول امسائل الحسية ولا يتوسعون في النظر أو يتعمقون
وراء الظواهر التي يلمسها شاهد الحس لما فلا تخرج عنده من حدود ما
يبينه أو يفهم من وقائع العيان والسماع

فغاية ما يقصدون إليه من أمر اللغة أنهم يلتصقون بالإسناد المعتمد
عند أهلها فأخذوا بالشك والتجريح . وأنهم يهدمون الدعائم القائمة
ليستحيروا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل إنكار ينكرونه من أصول
اليقين والاصحاح . وتشكيكهم في أساسيد اللغة من هذا القبيل لا يعدوه
إلى مطلب بعيد من مطالب الإحاطة والامتناع . فهو كالمنازع الذي
ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها إلى أركان الدار وما في
الدار . وتقديرهم مسألة لثك في وحدة اللغة أقل جدا من قدرها
الصحيح في مقدمات الدعوة الحمديّة . إذ هي أصلح هذه المقدمات
للدلالة على ما بعدها . وأصدق في التمهيد لتناخها من مقدمات السياسة
والأحداث الاجتماعية . لأنها المقدمة الوحيدة التي تمشي في طريق
الدعوة الحمديّة مساوقة لما مزية لأوانها . ولا تكون الدعوة الحمديّة
بالنسبة إليها كأنها رد الفعل الذي يقاوم ما قبله ويجري معه مجرى التقيص
من التقيص

الفخر باللسان العربي

إن الشعور بالعربية والتفخر باللسان العربي مقدمة لابد منها للدعوة
التي تواجه العرب بآية البلاغة في القرآن الكريم . وتزوعهم بالمعجزة التي
يحكونها إن استطاعوا أو يحسونها من لدرة الله

مثل هذا التحدى بالبلاغة لا يحدث في أمة لم تتأصل فيها مفخرة اللسان العربي والوحدة العربية جبين أو ثلاثة أجيال ، ولابد - مع ذلك - أن تكون فتحا قريبا أو شعورا قريبا لم يتناول عليه العهد مئات السنين ولم تذهب روحه بالألغة وفنونه النسيان

ووحدة اللغة القرشية أو الحجازية لا تصبح من مآخر العرب جميعا كرامة لغوية أو لأرض الحجاز ، ولكنها خليفة أن تسرى إلى نفوس العرب من حيث يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكنة لسلطان من المعجم على الخصر

والكمة من الجوار الوحيد الذي يشعر هذه العرب هذا الشعور فهم في الشام وعيا دولة الروم ، وهم في الحيرة وعيا دولة الفرس ، وهم في اليمن أتباع للحبش أو لفارس أو رعييا لسلطان يسبهم بالمدلة كما يدينهم الملوك الغريباء

ولكنهم عند بيت الله في حرم الله يقلمونه جميعا لأنه لهم جميعا يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم الذين يلوذون ويأوون إليه ، فكلهم من معبود أو عابد في حمى من الكعبة لأنهم في بيت الله وشعورهم هنا بأنهم «عرب» لم يتأله شعور قط في أنحاء الجزيرة العربية ، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه على الرغم من سادته وحكامه ، فإكان هؤلاء الحكام لينفوا على الكعبة مكانها ويفهموا لها نظيرا في أرضهم لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتبرا كاعتزاز البادية والصحراء

وحدة الكعبة

وقد وافق ذلك قول عرش الحيرة وزوايا عرض حمير واستكامة الفساسة في الشام نارة لثروم وثارة لفرس بلا ولاه هؤلاء ولا هؤلاء ، ولا بقية من الفخر فم غير أنهم عرب ولبسوا من هؤلاء ولا هؤلاء

وأن بقاء الإسلام على مكانة الكعبة للدليل على هذه المكانة ودليل على حكمة الإسلام في الاحتفاظ بها للعالم الإسلامي وفي منعه العمى بعد عائلته الأول في الجزيرة العربية

وتكاد نقول إن العرب أقبلت على الإسلام أفواجا حين صارت الكعبة إلى يديه وأصبحت عاصمة العروبة عاصمة للدين الجديد

ولو أن تكن لعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الإسلامية لما اعتزوا بالبيت الجامع مع هذا الاعتزاز ، وما وحدة أقوام متقاتلين متنازعين مأخوذون بعصبة الأحقاد والاعتزاز إن لم تكن وحدة اللغة ووحدة الفجر لسان من يشبهون به على «المعجم» «أحميم» ؟

قال سترابون إنه وجد الأقوام في بلاد المعجم تتفاهم بلغة واحدة ، وهي بلاد تعاقبت عليها صلاتات الآريين والطورانيين والساميين ، ويقال في روايات شتى إن الحاميين وصلوا إليها في رس قديم كما كانوا يصلون إليها ويتجمعون فيها بعد الإسلام بعد قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها في جزيرة العرب ، ولم يفس عليهم من الزمن مترجمين متفارين أكثر مما مضي على القبائل العربية التي من عادتها التحرك والانتقال من مرعى إلى مرعى ومن جوار إلى جوار

وفي زماننا هذا - من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين -
لا نرى أحدا يستغرب مخاطب القوم في جزائر البريطان بلغة واحدة ويهيم
الأيرلنديون والأيقوسيون والغاليون . وفي كل أمة من هذه الأمم خطباء
مفردون وشعراء مشهورون يحسنون الإنجليزية منظومة ومثورة وفي محام
الغذية والبيان . ولا نرى أحدا يستغرب ذلك في بلاد الإمبراطورية
العثمانية والماسكيون . ولا نرى في مصر هنا من يستغرب البيان الذي
يصبح إننا نسب إلى لغة من أثناء النعمة وهم يتفاهمون في لأفهم لغات
بريطانية لا يفهمها سائر المصريين ، فلا موحى الإنكار النظم والكلام
بلغة واحدة في جزيرة العرب قبل البعثة الصمدية بمائتي سنة أو أكثر من
ذلك مع عصر المنكرين أن يتوا بشاهد من اللغة الأخرى التي يفرضونها
وينكرون توحيد اللغة من أجلها . ومع توفر الأسباب الموحدة في جزيرة
العرب على نحو لم يعهد في غيرها من بلاد الزمن القديم . ولا تكفى كلمة
أو كلمات للحكم بالانفصال اللغات . فإن الإيسين في قعر واحد
لا يتفقان في جميع الكلمات

لكن التاريخ الثابت أن أبناء الجنوب لم يقطعوا عن الشمال ولم تزل
لهم آثار مكتوبة فيها إلى الآن . وقد وجدت بعض هذه الآثار بالخط
الجنوبي واللغة الشمالية مما يدل على تشابه الكلام والنطق مع بقاء الكتابة
بنطق الجنوب

وحدثت في تاريخ الجنوب حوادث متعاقبة نقلت زعامة الشمال إلى
الشماليين وجعلت أهل الجنوب تبعاً لهم كلها وفدوا عن الشمال . وحدثت
بعد قيام الدولة النبطية التي ازدهرت في القرن الرابع للميلاد وتعلم

روادها وتجدهم في العرب كما ظهر من بعض نقوشهم في محرابية وفي
إصطالبا الحوية

وقد كان من أسباب ضعف الجنوب وقيام دولة النبط في الشمال
اضطراب بلاد اليمن بعد حروب الإسكندر واجتياحه للدولة فارس التي
كان لها الإشراف على حكومة اليمن ونخابة الهند والشرق عامة في الأقطار
لعربية . وبعد هيار مد مارت وانتشار الفروانية في خليج العرب وبحر
العرب والبحر الأحمر . فغابت طريق القوافل التي تمر بالحجر على
جميع الطرق الأخرى انقاربت الصلة بين النبط والحجازيين وأخذ
الحجازيون بالحقبة الوسطى التي تلتق عدداً سبل الجنوب والشمال
والشرق والغرب في كل بقعة عربية لم تكن للفرس حماية عليها .
واشتعلت الحروب بين المحبين على خليج العرب والعاصم في ناحية
اشام فأنعصر لأمان أوكاد على طريق الحجاز . واحتاج النعمان بن
النذر - صاحب الحيرة - إلى زعماء مضر لحماية تجارتهم داخل الجزيرة إلى
مكة . فكان من أسباب يوم نخلة أنه أراد رجلاً بحير فوافقه على أهل نجد
فتنازعها البراض وعروة الرحال سيد هوازن . وقال له هذا إنه يعتزها
على أهل الشيع والقبصوم في أهل نجد ونهامة . ثم نشبت الحرب
فاحتكم الجميع أخيراً إلى سيد من سادات مكة عبد الله بن جدعان
واقضت عدة قرون على اتصال النبط والحجاز . وعمل
الحجازيون على تعظيم شأن الحجازيين النبطيين فوضعوا في الكعبة تماثيل
أرباب بعبدتها النبطيون بعد منها الرواة هل واللات ومناة التي قيل إنها
من « المنية » بمعنى « القدر المقدور » تعود النبطيين ، وقولهم كانت منية
وسان قدره معنى واحد عبد عباد مناة

ولا شك أن قصة « عسروين لحى » التى انفقت الأخبار على أنه
 قتل الأصنام من بلاد النبط إلى الكعبة إنما هى وسيلة من وسائله لتعظيم
 شأن الكعبة عند أهل الشمال وإيتائهم بها كما رحلوا إلى الحجاز وتقريب
 ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام . وهم جميعا حاربون على تحريم هذه
 الشفة وحماية روادها من كل قبيل

وأخطر من ذلك كله أثر فى إعطاء شأن الكعبة أنها المفضلة القومية
 والحرم الإلهى الذى بقى للعرب بعد سيادة الروم على خسان وتقلب الحيشة
 والفرس على اليمن وشعور اللخميين - سادة الحيرة - أنفسهم بمناعة
 الكعبة ومناعة الطريق فى أيدي مضر ومن يواليها . وهو أن سلطان هؤلاء
 اللخميين حتى آل بهم الأمر إلى الدثور . ثم جاءت وقعة ذى قار التى
 انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخميين وقضاء الفرس
 عليها فهزت الجزيرة من أنصافها إلى أنصافها وفتت عن نخوة قومية عربية
 تمكنت من نفوس القبائل جميعا فاشترأبت اعتناقها زمنا إن كل ملاذ
 تنصر عنه أيدي فارس والروم

هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم . ويفخرون بجنسهم
 من سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل
 البسخ والحضارة ومحل العلم والصناعة . حتى أصبح الفخر بها علامة من
 العلامات التى يتميزون بها فى عرف عماء الأجناس البشرية . فإذا وجد
 الفخر باللغة فذلك علامة العزى بين العناصر عامة من أقاربه الساميين إلى
 الغرباء عنه من الآريين والطورانيين والحاميين . ثم تتجلى فيهم - دون
 سائر الأمم - تلك الظاهرة الفريدة فى تواريخ الأدب والثقافات ، وهى

العلو بالبلاغة حتى تكون البلاغة فى قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم
 تحديا لوي . وتحديا ربانيا . من معجزات الإله التى لا تتسامى إليها قدرة
 البلغاء فى أمة اللسان والبيان

وهذه ظاهرة متجلية للنظر القريب والبعيد لا تحتاج من المستشرقين
 إلى بحث من مجهول أو معيّن . فانيعى الكتاب بهذه المعجزة لأمة عكست
 من مآثورات البلاغة فى شعرها وحوامع كلامها . وما هو بخائر عقلا أن
 يتعداها القرآن وهى لا تعرف من كلامها شيئا يتجه إليه ذلك التعبد
 وتندرو عليه لوزانة فى عرف الحياء بالكلم البليغ . فالقياس المستقيم أن
 القرن نزل فى قوم لم بلاغة موروثه يتناقلونها ولا يجهلون أعلامها . وأما
 القول بأن بلاغة الجاهلية لم تكن حقيقة واقعة وإنما اصطفاها الرواة
 اصطفاها بعد الإسلام سند للقرآن ودفعاً للشبهات عنه بين المؤمنين به -
 وليس من القياس المستقيم فى مقياس غير مقياس أولئك المستشرقين . وما
 كان الجاهلى تكافؤ بقول به القرآن ولا يشك فى فصاحة القرآن ثم يأتى
 المسلم المؤمن فلا يشك فى فصاحة القرآن إلا بكلامه بجلده حلق لينسب إلى
 أولئك الجاهليين . وقد حدث ببعض ذلك فى كثير من الشاهد على
 صحة اللغة ولانها . فذكر القرآن مرجع المصححين فيها لاعتقائهم عليه
 ويستغنون له سنداً لا وراء فيه

ومها يبلغ من ضعف المذاكرة باليادى - وليست من بالضعيفة -
 لمن يبلغ من سبائها أن ينقطع الجذع عن أخبار أبيه وأخبار بني . وأن
 ينسى لغة سمعها فى حياته أو سمعها أبوه قبل مولده . فإكان جيلان أو
 ثلاثة أجيال بالامتحان المسبب لمذاكرة قوم لا يعول هم على غير المذاكرة
 ورواية الأختلاف عن الأسلاف . وأنه يمتنع أو يستحيل أن ينشأ الإسلام

في جيل يجهل اللغة التي تنسب إلى شعراء المعنقات وأقدمهم لم يسبق
جيل الإسلام بأكثر من مائة وخمسين سنة . وفي هذه السنين خاصة
توجد حساب التاريخ وتولاه فلاس العرب وخالفوا فيه تقوم اليهود في
حساب النسخ . فكان جنادة بن عوف ناسبا عند ظهور الإسلام .
وسبقه أبوه عوف بن أمية وسبقه أبوه أمية بن قح وسبقه أبوه قح بن
عباد . وسبقهم آخرون إلى عهد الفلمس من بني كنانة . مهم في تاريخ
معلوم متسلل قبل الإسلام بأربعة أجيال

ومن فهاهه المشرقين هؤلاء أنهم لا يختارون من تاريخ العرب
مطلعا يصيبونه غير اللغة والأنساب . وكلهم يتخذون عن العلم في
شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربي أو الإسلامي من أقدم عهوده . ثم يأتي
العلم فيثبت بذلكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء
أرسمين حتى لقد أصبح استحيى هذا هؤلاء حقائق لا يعرفون
من التحقيق إلا أنهم كل رواية عربية أو إسلامية - تخريف

فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عاد ونمودا وأنكر الكوارث التي
أصابهم بغير حجة إلا أنه يحب أن السكر لا يظن بجحفة ولا يعاب
على النبي الخراف . لما لبثوا طويلا حين تبين لهم أن عاد (Oadite)
ونمودا (Thamudide) مذكوران في تاريخ بطليموس وأن اسم عاد
مفروق باسم أرم في كتب اليونان . فهم يكتنونها "أدميت Admitae
ويؤيدون تسمية القرآن لما عاد أرم ذات العاد . . . وعمر المنقب
موزيل التشكي (1) صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار

(1) Northern Hejaz by Musil.

هيكلا عند . مدين . مقنوش عليه كلام بالنسبة واليونانية وفيه إشارة إلى
قبائل ثمود

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ونكبة جيشه وأهنامه
شعيل الكعبة وبثت قلبس في صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها .
ثم تنكشف النقوش عن سم على خرب سد مأرب ملقا بالأمير الحبشي
من قبل . . . من حبشة ومبا وريدا وحضرموت والجماعة وعرب الوعر
والسهل . . . ويترثر الخبر عن الجدوى الذي نقش في منتصف القرن
السادس للميلاد فيذكره بروكوب (Procobe) من وزراء
القسطنطينية . يروي الرحالة بروس (Bruce) الذي زار بلاد
الحبشة في القرن الثامن عشر الأحداث بذكرون في تواريخهم أن أبرهة
فصد إلى مكة ثم ارتد عنها وأصاب جيشه من المرض الذي يصفونه
بصفة الجدوى . ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعا سند التاريخ بعاد
القبيل قبل اللغة العصبية نجيل واحد . بل أقل من جيل

وسد مأرب ومنه . يسلم من التكذيب . وباء قريش للكعبة بعد
مولد النبي هو أيضا تخريف في زعم هؤلاء المخرفين ولكنه نفي من يدحض
من غير حرج . وأما من يدعي . . . وكتب كرويس عقيقته الذي يقول
فيه . . . من كذب في عهد بن عمرو . . . قصة عمر قريش
للكعبة بسبب . . . حيرة من سجع حيان . فالجواب يثبت لنا جليا بعد
ما أوردناه من حقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشي في سنة ٦١٨
ميلادية ووجود الصور المسيحية التي كانت تحمل باطنها وقايا معمار حبشي
بيناتها - وهي جميعا حقائق متأسكة أخذ بعضها برقاب بعض - صدق

رواية المؤرخين الذي قصوا أخبار هذه العجزة وصحة ما ذهبت إليه وبطلان ما يدعيه كاتبان من اختراع هذه القصة وتلفيقها (١)

ونحن نقف بهذه التواريخ عند حدها ولا نتجاوزها بماها : فحسب الناظر في التاريخ أن يفهم منها أن أخبار العرب عن لغتهم وعن أوائهم لاتدحض جملة واحدة ، وقد تحالطها المبالغة وتناقض حولها الغرائب ، بل ربما كان من دراغى إدحاضها أن تبرا من كل سالنة وغرابة ، فأما لكذب الذي يعاب على العلم وبلحقه بالخرافة فهو هذا التحقيل الذي هو أهون وأضر من التخريف

• • •

إن الحوادث الكبرى تستدعى للمقارنة بين فهمنا ما بتقاييس العلم ومقاييس الفلسفة ومقاييس العقيدة ، وتوحى إلينا في جميع الأحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها إلى أعماقها وأقدرها على التفسير كلما استحاشت العقيدة في الأمم قوة الحياة وقوة الضمير .

والإسلام قد استنصق تاريخ العرب قبل دعوته فجعله كله في الوحدة القومية وأقام هذه الرحلة على ركنيها اللذين لا أقوام لما بغيرهما على تساند وانفاق : وهما ركن اللغة وركن الحربة الدينية ، وكلاهما كان تمهيدا صاحبها لظهور الدعوة الإسلامية

إلا أن معجزة الإسلام في جميع مقدماته ونتائجها إن هذه النتائج لم تكن قط متفاداة مسخرة لتلك المقدمات ، فإن هذه العصبية اللغوية

(١) المحلة التاريخية المصرية ، عدد أكتوبر سنة ١٩٢٩

العصبية قد آلت في يد الإسلام إلى دعوة إنسانية عالمية لانتكسر شت كما تنكسر العصبة الجاهلية ، ولانكسر ربا غير رب العالمين ولا قسطاسا غير قسطاس العمل الصالح يتفاضل به القرشي والحبشي والعري والأعجمي وعزة النبي ومن ليست بينه وبين النبي لحمة غير لحمة الإيمان .

ونعود فنقول إن شأن اليهودية في توضيح هذه الحقائق أعظم من كل شأن لها في الجزيرة العربية . لما لانتزع فيه أن أناس من اليهود قلعوا إلى الجزيرة بلعة غير اللغة الحجازية فاحتفظوا بلغة الدين للدين ولم يعض عليهم زمن طويل حتى عم الفهم بينهم وبين سائر العرب بلسان الحجاز وتهامة ونجد ومن جاورهم من الأبط وعرب الحيرة وبادية الشام . وهذه حقيقة تاريخية واقعية مسقطه لكل دعوى يتحذلق بها أدعياء العلم من محرفي تبشير والامشرق .

المسيحية في الجزيرة

أما المسيحية فقد كان لها مدخل إلى الجزيرة العربية غير هذا المدخل . فلم تصل إلى داخل الجزيرة عشيرة كبيرة أو صغيرة من المهاجرين . ولم يأتيها قوم بلسان غير اللسان العربي كما حدث في هجرة اليهود . ولكنها شاعت بين قبائل من العرب في جزيرة الدول التي سيطرت على أطراف الجزيرة ، وهي بيزنطية وفارس والحبشة . وكان لمذهب الماهل القائم بالأمر في دولة بيزنطية أثر كبير في توجيه النحل والمذاهب في بلاده وبلاد أعدائه . وقد حدث في مدى قرن واحد أن العواهل كانوا يحرمون المسيحية على رعاياهم ثم دأبوا بها على مذهب وجاء من بعدهم فدان بها على مذهب بباديه ويرمه بالكفر والزندقة . فمن شاء أقام مع الماهل في

بلادها طائفا له أو مداريا لأمره وإلا فلي بلاد أعدائه من القوس منع له يعلن فيه مذهبه وينطلق في تسفيه العاهل وشيعته غير منوم ولا ممنوع . وأفتت إلى الجزيرة العربية آحاد من كل غلة مسيحية غضب عليها عاهل القسطنطينية ، فهاجرت إليها فئات متفرقة من أتباع آريوس وأوريجين ونسطور ولوسيان الأنطاكي وجماعة المشبهين وجماعة القائلين بالضيعة الواحدة والقائلين بالطبعتين .

وكان نسطور بطريرقا للقسطنطينية ينشر مذهبه بأس الدولة ثم عزل وتعه خصومه بالنفي إلى أرض النوبة ، وعور مذهب أنه يفصل بين الناسوت واللاهوت في السيد المسيح ويرفض القول بتأليه العذراء عليها صلوات الله ، وكان الأنطاكي ينافض تفسير الكتب الدينية بأسلوب المجازات والرموز ويلتمز اللفظ والنص في فهم معانيها ومسانلها الغيبة . وكان آريوس يقول إن الكلمة هي واسطة الخلق ويقول أوريجين إنها مخلوق محدث له الشرف على سائر المخلوقات . وإن هذه الكلمة تحسنت في السيد المسيح فظهرت على مثال الإنسان . وآخرون يقولون إن جسد السيد المسيح تشبها بالجسد وليس بالجسد المادي الذي يعكس حمد الإنسان . وإنه في لاهوته أجل وأرفع من أن يتعذب أو يتضرع . وصبيحته عند الصلب لم تكن « ربي ! ربي ! » بل كانت : فوقي ! فوقي ! كما ورد في بعض النصوص .

ويعترف جورج سبيل مترجم القرآن بما كانت عليه حال المسيحيين في الحجاز من السوء والفسالة ، فيقول في مقدمته للترجمة « من الحق أن ما أم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال في صدر المائنة

لثالثة للبلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلبا للحرية وكان سننهم باقية فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التي تنصرت حمير وغان وزبيعة وتعلب وهراء وتنوخ وبعض طيئ وقضاة وأهل نجران والحيرة . . . ولما كانت لنصرانية هذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد أنه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمّة منها لتتنظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف طقار وقال بنفسه كانت نجران مقام أسقف وكان لمعاينة أسقفان . . . يدعى أحدهما أسقف العرب بخلق نلفظ وكان مقامه باكولة وهي المكوفة عند ابن العربي أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبي الفداء . وثانيها يدعى أسقف العرب تعبين ومقامه بالحيرة . أما المناصرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم .

إلى أن يقول : « أما الكنيسة الشرقية فإنها أصبحت بعد انقضاء المصحح النيقوي مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضي وتنقص حبلها بمباحكات الآريوسيين ولنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذي ثبت بعد البحث أن كلا من يدعي المناصرة واليعقوبية كانت بأن ندعى اختلافنا في التعبير عن المعتقد أول من أن ندعى اختلافنا في المعتقد نفسه . وبأن تدعى حجة بتعت مأكول من المتناضرين على الآخر أولى من أن ندعى سيماوجا لالتناء بجامع عديدة يتردد إليها جماعة القسان والأساقفة ويتباحكون ليعمل كل واحد منهم كلمته ويجعل القضاة إلى هواه . ثم إن نافذتي الكلمة منه وأصحاب المكاة في قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من فواد الجيش أو من أصحاب الحفظ

يكون به عليهم الولاء ويتفرق بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهاراً . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس في المشاحة على منصب الاسقفية - أى أسقفية روته - ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما . . . وكان أكثر ماتناً هذه المناقشات عن لقياصرة أنفسهم ولاسيما القبط قسطنطينوس فإنه إذ لم يندر أن يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز تلك الذين يكثير من المسائل الخلافية . . . هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب . أما في بلاد هذه الأمة التي هى موضوع بحثنا فم تكثر خيراً من ذلك . . . فكان في نصارى العرب قدم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتشر معه في اليوم الآخر وقيل إن أوريجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب ، وكتم وكتم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها ؟ ! من ذلك بدعة كان أصحابها يلونون بالوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصاً مصفورة من الرقاق يقال لها كبرىس وبها سمي أصحاب هذه البدعة كلييين وفضلاً عن ذلك فقد اجتمع أيضاً في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء لجأوا إليها هرباً من اضطهاد القياصرة . . .

فالحالة التي تمثلت بها النصرانية في جزيرة العرب لم تكن حالة هداية يحيط به مذهب واحد صالح لتعلم من يتعلمه ، بل كانت شيعاً سياسية ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالمصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ما عندهم من البصر الثاقب والهداية المترمة التي يعود إليها الفضل فيها قبله وتاباه ، ولا تفصل عليها لمن يعلمها نخلة من تلك الحل تغدح في سائرها وترمى الذين يتبعونها بالكفر والصلال .

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين أهل الكتاب جميعاً كما جاء في سورة المائدة عن طوائف اليهود ولنصارى .

قال عز من قائل : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرتم عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار لمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل - لما نقصهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تراك تطلع على حادثة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين - ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فسوا خطاً مما ذكروا به فأغرنا بينهم للعداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبهم الله بما كانوا يصنعون »

هذه حالة النصرانية في الحجاز كما عهدنا النبي عليه السلام قبل مبعثه ، وهى هذه المثابة من مقدمات رد الفعل لأمم مقدمات التمهيد والتحضير . سواء كل ذلك في أمر النبي أو أمر الحكمة من طلائع الهداية الذين عرفوا باسم المتحفين أو المنحسين .

وينبغي الاحتراز من قول القائلين إن أحداً من أولئك المنحفين أو الخنفاء تنصر أو يهود على مذهب مفصل متنوع لعقائد النصرانية أو اليهودية ، فكل ما يصح من أخبار الخنفاء أنهم كانوا يعرفون أن الإيمان بالإله الواحد أهدى وأحكم من الإيمان بالنصب والأوثان ، ونحسب بن هشام قد صدق الرواية حقاً حين قال من أشهر هؤلاء المنحفين

زيد بن عمرو بن نفيل أنه وقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية فارق دين قومه فاعتزل الأوثان والمبنة والذمايح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل المردة وقال أعبد رب إبراهيم . . . وكان يستد طهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش ! والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيري . ثم يقول : المهج لو أني أعمر أي الوجوه أحب إليك عبيدك ولكني لا أعمر .

ومثل من نفل ورقة بن نوفل الذي قصدت إليه السيدة خديجة لتسأله عن جبريل الذي نطق لني عليه السلام باسمه أمامها . فانه كان يعطين القراءة في كتب اليهود والنصارى ويعلم أن عبادة الأصنام ضلالة فيتمسك خديجة في غيرها ولا يستوفي العلم ولا الإيمان بأى الديانتين . وعاية الأمر في نصرانيته كما قال ابن هشام أنه كان نصرانيا تتبع الكتب وغمر من عمر الناس . . . وقد ذكر عنه مع ثلاثة من أصحابه . أحدهم ابن نفيل . أنهم كانوا قد اعترفوا من عند صه بمضمونه في بيده عبد فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قوسكم على شيء . . . لقد أخطأ دين أبيهم إبراهيم . ما ححر بظف به لا يجمع ولا يضر ولا ينفع يا قوم ! انصروا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء .

قال ابن هشام : فمروا لبلدك بلنسون الحنيفة دين إبراهيم

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقولون إنهم بعدوا لأرباب والأوثان إلا يقرؤهم إلى الله زلي . وسرى في الكلام على لكعبة أن الحقة التي سفت هنة التي شهدت طوائف من المجتهدين في لمادة منهم حائفة الحس التي اختفت الحرم وحده بالتفديس

وتسكت بصروب من عبادة لم يتبعها أحد من قبهم في الجاهلية فقد كانت الحقة إذن حقة حائرة بين العادات ولم تكن عادة منها تستأمر بضمير صاحبها أو تفتيه عن الشطرنج غيرها . وقد كانت هذه احيرة في جانب من جوانبها على الأقل أثرا من آثار الجامعة القومية أو أثرا من آثار الشرق إلى ذبابة جمعة غير ديانة الأصنام المتفرقة لكل قبيلة من قبائل صم تفرد به أو تميزه بين زمرة الأصنام المشتركة .

فقد كانت المذنب تعد أصنامها ولم تكن لها حاجة إلى الاشتغال في عبادة واحدة تشبها . فلم وجدت هذه الحاجة بسوا النفس في كل عبادة من عباداتهم وذهب أصحاب النظر منهم يبحثون عن ندين الصالح ويستلهمون من كنيسة بيت الله فبما يقرهم من الله ومن ديانته رب البيت ونايته إبراهيم عبد السلام . وقد بنا نسب الحزبيون أنفسهم إلى إسماعيل بن ابراهيم ونسب إليه أصحاب الثوراة وعلماء الأساطير .

وان اصدق وصف للحالة الدينية في عصر لبعثة الدينية أم حالة نقص في كل حنة وكل عقيدة . فلم نعلم من أخبار الوثنية قط أم كانت تستوعب المؤمن بها وتمنعه أن يأخذ ببعض الشعائر من هنا وأن يتقبل بعض الآراء من هناك ولم تكن الحدود بين الحبل ولعادات الدينية متحركة مستقرة على قرار لا ياذن بالتبديل والزيادة والتحويل . ولا يكن المتدين منهم جميعا يتنبه إلى الابتداء في أمر الدين إلا أن يسومه الخروج على قومه والزواية بشرعة الآباء والأسلاف فيمثل تقلب المسنة من تصرف في الشعائر والآراء إلى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب . ونعتمد البدعة الجديدة إذن بالعصية القومية كلها في

بيان البقظة والطموح ، وهذه العزيمة لم تفاجئ أبناء الجاهلية قط من نخلة يحكونها أو يستجيون ما يحكم المسيرة والجاراة . وإنما فاجأهم من دعوة للإسلام وحده فتمردوا عليه ذهابا مع العصبية وتراث الحسب والنسب ولم يتمردوا عليه ذابا عن ملة شاملة تستأثر منهم بالضمائر والأفكار

فالوحدة القومية مهدت للإسلام إلى حد محدود . ويسرت له الأمر بالتوقع والانتظار ثم وقفت دون الغاية حين اصطدمت القومية بالدعوة الجديدة ووجب أن تثوب الدعوة الجديدة إلى قوة أكبر من قوة القومية التي اعتر بها المشركون وخططوها بما ألفوه من السيادة والمصلحة في التراث القديم .

فبالوحدة القومية تمهدت حريق الإسلام . وبقوة الإسلام برزت من الوحدة القومية شريعة الإنسان وعبادة رب العالمين .

ولم نذكر فيا تقدم عاملا من شهر شومل هذه لوحدة القومية وهو يوم ذي قار الذي تنصرف فيه العرب على الفرس وارتجت له الجزيرة العربية بالفخر والأمل في مطلع العصر الإسلامي وعند ولادة النبي عليه السلام .

لم نذكره لنضعه كما وضعه أناس في مقدمة العوامل الكبرى . ولانتهاء منا لنحسه منها ولانقدهم عليها . فلو لم يكن يوم ذي قار كانت الوحدة لعربية وكانت توابعها التي لحقت بها في أوائها . ولعل وثبة ذي قار جاءت بعد الوحدة القومية ولم تسبقها ، ولعلها كانت الجولة الثانية بعد الجولة الأولى على تخوم الدولة الفارسية ، فلم تنازع

أمراء الحيرة وشواهب الدولة غلبت الدولة على الإمارة ونقضت الأكاسرة والشواهب على المازدة والنعمانيين ، ولما التفت سطوة فارسية ونخوة عربية في الجولة التالية ظفرت القبائل حيث أخفق الأمراء .

كانت دوقار ولبدة النخوة العربية ولم تكن أمها التي ولدتها ، وإنما كانت أم الأمهات في هذه النهضة وحدة اللسان ووحدة الجنان .

• • •

النسبة المحمدية أوائل النبوات

ندع الآن هذه الوحدة ريثما نعود إليها في الكلام على الكعبة المكية ،
وترجع بتاريخنا إلى أوائل النبوات لنمضي بها إلى ختامها بالرسالة
المحمدية ، فإن تاريخ النبوة من أوائلها أصلح المقدمات لبيان فضل النبوة
كما بعث بها خاتم الأنبياء

من قديم الزمن وجدت الرغبة في العلم بالغيب واستطلاع
المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يفتق عليها الناس عامة من
قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسوع والمناظر التي تبشر بالخير
والنجاح أو تنذر بالشر والحية .

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها
أحد منهم دون غيره ، فكل ما عرفه الناس قديما من علامات التفاؤل أو
علامات التشاؤم فقد ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء
إلى الأبناء .

لكن الرغبة في استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من
هذا القبيل ، ولاسيما المجهول الذي يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير
المقربين من عبادهم ، وهم خدام معايدهم والأمناء على مشيقتهم
والمترقبون لوحيم في ليالهم ونهارهم ، فربما عرض للقبيلة عارض جسيم
لا تعرف وجهتها فيه ، ولا يلبط على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها

عن صوره من الصور . أو كلمة يسميها من غابر ضيق يستوحى منه
لشيرة أو الإنذار . فإن شئون الفرد عم شئون القبيلة . وليس لفرد من
عامة قريدها أن يدعى لنفسه القدرة على عون أربابها والفهم عنهم في
معبدهم ومحاربيهم . مع وجود الكاهن الذي انقطع لخدمة الأرباب
وورث منه الخدمة من آياته وأحداذه في أكثر الأحوال . ولا مع وجود
نكهن نذرى ترى من صباه في مهده العبادة ليقرب من الأرباب
معبودين ويعقه عنه من إشاراتهم ومضامين وحيمهم ما يفتق على سواه .

ومن قديم الزمن أيضا وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائي »
سواء كان يتنطق بلسانه والجهر بوعده ووعده . ولم يكن
بين عمل الكاهن وعمل رائي تناقص في مبدأ الأمر . لأن كلام الرائي
كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه ونبي « النفاية » من خلصه
وصطريه إذا كان يغلب على الرائي أنهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو
جسنة ، أو « مصرع » فيندفقون بالوعد والوعيد ويندرون الناس
بأنفوس وشور . ويقولون كلاما لا يذكرونه وهم مفيقون . فيحسب
السمعون أن الوثق المعبود يخبر هذا الكلام على أنسنتهم للموعظة
وتنبيضة . وسمى المصرع من أجل هذا بالمرص الإلهي في الطب
نسب

وكـ يونان يسمون الرائي مانتى Mantiv ويسمون المعبر عنه أو
مفسر كلامه بروفيت propnet أى المتكلم بالنبأية عن غيره . قبل أن
تسمى هذه الكلمة على التي بمعناها المأثور في الأديان الكتابية ، ولكن
غرن بين الرائي والكاهن لم نزل ملحوظا في الأرمية المتأخرة كما كان

التياء بينهم كانوا وقددت ثوباتهم في وقت واحد فتأقروا بأنهم
والشجيم والشمير ، وأضيف من جانب النبوة عند بني إسرائيل خاصة أن
يظفروا بينا وبين الخيون ، كما حفظوا بينا وبين البحر والكهنة

كذلك خيروا من الألفاظ على الخيون .
بالتياء ، ويظهرون بينا لكثير من الخيون في ذلك
علاوة ، وغير قليل من الخيون بينا وبين كل على علاوة
والكلام ، ولكن لم يرفع بينهم إلى مكانة الخيون التي يسمونها اليوم كلمة
عرب الأقباط من العرب والسمين كلمة النبوة قبل سنة موسى عليه

النبوة والخيون

من أجل كمالهم بعد ولودهم على فلسطين .
وحيث Schmitz يرحب أن كلمة النبوة في استعادة النبوة
Holsher من أجل علمه التاريخ السري وما هو ليس النبوة
ويبرز هذا الرأي ما جاء في موسوعة الكليات اللاهوتية (١) في النبوة

وأيضا قولهم وهو أن النبوة .
التياء ، وهم يقولون ولهم وأيوب وسليم من يقول أنه ظهر قبل النبي
أنباء من العرب غير ملكي صادق الذي أتته الخيل عند بيت
النبوة في حين الألفاظ التي أخذها . . . وقد أشارت النبوة إلى علاوة
الصلح على النبي بعد ذلك باسم الألفاظ التي أخذها . . . ولم يفسروا من كلمة
الصلح ما فهموا ، لأنهم كانوا يسمون الألفاظ الألفاظ بالآباء وكانوا يسمون

الألفاظ . . . والنبوة في تلك الفترة بعد
الكليات التي لا تفسر في اللسان العربي النبوة في تلك الفترة في الألفاظ
النبوة العربية في تلك الفترة النبوة والكهنة وما أتته من
النبوة في تلك الفترة التي أخذها . . . غير مستعملة من معنى آخر ، لأن
الصلح ما فهموا في تلك الفترة . . . إذ وجدت كلمة النبوة في اللغة
وجدت في سائر الألفاظ ، ولم يسموا الألفاظ بغير معنى النبوة إلا بعد
وقد وجدت الكليات والنبوة في اللسان العربي من أديم عصرهم كما

• • •

• • •
في تلك الفترة . . . في تلك الفترة . . . في تلك الفترة . . .
التياء ، وهم يقولون ولهم وأيوب وسليم من يقول أنه ظهر قبل النبي
أنباء من العرب غير ملكي صادق الذي أتته الخيل عند بيت
النبوة في حين الألفاظ التي أخذها . . . وقد أشارت النبوة إلى علاوة
الصلح على النبي بعد ذلك باسم الألفاظ التي أخذها . . . ولم يفسروا من كلمة
الصلح ما فهموا ، لأنهم كانوا يسمون الألفاظ الألفاظ بالآباء وكانوا يسمون

• • •
في تلك الفترة . . . في تلك الفترة . . . في تلك الفترة . . .
التياء ، وهم يقولون ولهم وأيوب وسليم من يقول أنه ظهر قبل النبي
أنباء من العرب غير ملكي صادق الذي أتته الخيل عند بيت
النبوة في حين الألفاظ التي أخذها . . . وقد أشارت النبوة إلى علاوة
الصلح على النبي بعد ذلك باسم الألفاظ التي أخذها . . . ولم يفسروا من كلمة
الصلح ما فهموا ، لأنهم كانوا يسمون الألفاظ الألفاظ بالآباء وكانوا يسمون

بعضهم بما ينهى عنه الآخرون ، فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون في المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل إلى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التي تأتي أحيانا بعد نسيان ما تقدم من النبوءات .

وغلبت عليهم في مبدأ الأمر عقيدة شائعة بذهول النبي وعيابه عن الوعي في جميع أيامه وفي الأيام التي يمنكه فيها الوجد الإلهي على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبة والاتصال بالغيب شيء واحد . وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبي وإقباله بحملته على الله .

ويؤخذ من سفر صمويل الأول أن النبيين كانوا يظهرون جماعات جماعات ، إذ أرسل شاول وسلا لأخذ داود فأرأوا جماعة الأنبياء يتنبأون وشاول واقفا بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رس شاول لتنبأوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء . . . فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صمويل وانطرح عاريا ذلك النهار كله وكل الليل .

ومن لم تملكه حالة الوحدة برياضة النفس على الخشونة والشلط وتحريض جسده لحرارة الشمس وبرد الليل فقد يستعين على اكتسابها بالسباع والجولان ويستقل بهذه الوسيلة إلى الشوة أو الغيبوبة فيطلق لسانه بالنبوءات والرموز ويستخلص منها السامعون تفسيرها بما جرت عليه عادتهم من التأويل والتخريج .

وفي سفر صمويل قبل ذلك « أنه يكون عند عيبتك . . إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء تابلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف

وناي وعود وهم يتنبأون . فيحل عليك روح الرب فتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر .

وفي سفر الأيام الأول أن داود ورؤساء الجيش « أفرزوا للخدمة بني آساف وهبان ودموثون المنتبين بالعبدان والرباب والصنوج »

وفد ينزل بنو الأنبياء كأنهم يرشحون أنفسهم للنبوة بعد آباءهم حتى يفتق بهم مكهم كما جاء في سفر الملوك الثاني : « وقال بنو الأنبياء لأشبع هو ذا نوضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق عليك فلتذهب إلى دارنا »

وعلى هذه الخبرة التي كانت تفتاب القوم بين النبوءات الكثيرة لم يكن بهم غنى عن النبي الصادق الذي يعذرهم غضب الله ويبلغهم مشيئة ويحل عليهم فرائضه وأحكامه فلم يعرضوا عن الأنبياء كل الإعراض ولم يفلحوا عليهم كل الإقبال ، ورجعوا إلى التجربة في التفرقة بين النبوءات . وعقيدتهم في ذلك ما جاء في سفر التثنية حطابا لموسى عليه السلام : « وأقبح لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فم فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أقالبه . وأما النبي الذي يفرض عليكم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم الله أخرى فيسمو ذلك النبي وإن قلت في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب لما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب ، بل يطفيان تكلم به النبي فلا تخف منه »

مكان من وصايا سفر التثنية التي تنسب إلى موسى عليه السلام ، أنه إذا قام في وسطك نبي أو ساحم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعزلها وتعبدوها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الساحم ذلك الحلم . لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النى أو الساحم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيف من وراء الرب . . .

إلا أن الحيرة بين أصحاب الآيات والمعجزات لم تبطل في عهد أنبياء بني إسرائيل ولا بعد ظهور السيد المسيح . فكان الرسل يستدلون بالعجائب والآيات العظيمة على صدقهم وكانت العجائب الكثيرة تجري على أيدي الرسل كما جاء في سفر الأعمال ، وكان بولس الرسول يبيكت أهل كورنثوس وينعى عليهم سوء معتقدتهم بعد العلامات التي صنعها بينهم وصير عليها بآيات وعجائب وقوات . . . وكان إلى جانب هذا يحذر الشعب ممن يقندرون بقوة الشيطان على الآيات والعجائب الكاذبة ، بكل خديعة الإثم في المالكين .

وجاء في الرؤيا أن الأنبياء الكذبة يقندرون على ذلك إلى آخر الزمان . . . ومن ثم النبى الكذاب ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع ، فإنهم أرواح شياطين صانعة للآيات تمخرج على ملوك العالم وعلى كل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم .

ومنذ عرف اسم النبوة بين قبائل إسرائيل ظهر فيهم مئات وألوف من هؤلاء المنتهين لم يكن شأن لأكثرين منهم ليزيد على شأن الدراويش الذين يلوذون بأماكن العبادة أو أماكن الزيارة في جميع الأديان ، ولم

تكن قبائل البادية ولا أهل القرى لضيقوا شكايهم معاشهم لأنهم كانوا يقعون بالقليل من الحطب والأدم وبالخشن الرخيص من ملابس الشعر والصوف . وربما استراح إليهم الدماء لأنهم يفرجون عن صدورهم بالاحتباء على كرائيم وسروانهم الذين يستسلمون للطمع والكبرياء ، أو ربحي حيل من الأمهات والآباء بهم يباركون أطفالهم وشغلهم مرساهم وبغويهم أمامهم بأضراف من الأقويين يفسدون وموزها بما يطيب لهم ولا يشعرون بها برهن شديد لأنهم لا يحطون مؤنتها إذا أخذت مأخذ الخد والحسامة ، بل ترتفع إلى ندى ولاية الأمر ورؤساء الدين والكهنة والحكام فيوفرون بين نقائصها أو يستخدمونها في تلقين الشعب ما يحبون أن يقولوه بلسان المنتهين ولا يقولونه بأنفسهم ، خوفا من شعاعه أو من قبل الحجة للتراجع إذا حس لديهم أن يرجعوا عما فرضوه وأثبتوه .

كان خطف المنتهين من هذا القبيل ميسورا للقبائل رؤوسا ، حتى إذا ظهر الأنبياء الكبار ظهرت معهم حالة كبرى لا تعرض كل يوم ، لأنهم لا يظهرون إلا إذا احتاجت القبائل إلى تغيير شامل في معيشتها وأخلاقها ومعاملاتها ، وقد يتقاضاهم الأمر هجرة إلى بلد ما أو قتالا مع أهل البلد الذي هم فيه أو مع أهل جواره ، وليست خطتهم مع المنتهين الصغار بمجدبة مع هؤلاء الأنبياء الكبار دعاء التغيير الشامل وأصحاب الحق في القيادة المطاعة ، وإنما الحصة المجدبة هنا هي الانقياد للدعوة التي يخشى على من يعصها أن يهلك بغضب من الله ولو عم أهلك قومه أجمعين فلا يلبث النبى الكبير أن يتزل في منزلته بين القوم وأن يتولى بينهم مكان القيادة والتشريع والتعليم ، وهو أرفع مكان يسمو إليه عندهم صاحب حق أو صاحب سلطان .

دليل الأمان

إن مهمة النبوة كما قدم بها هؤلاء الأنبياء الكبار هي أعلى ما ارتفع إليه نظر الأقدمين من بني إسرائيل وغيرهم إلى مقام النبوة ، فقد كانوا يلقون عليهم كل معولهم ، ويطلبون منهم ما لم يظفروه قط من ذي ثقة أو مقدرة بينهم ، فأنهت هذه اللطالبا كافة إلى غاية واحدة : وهي أن النبي « دليل أمان »

يقبلون منه التعليم والهداية ، ولكهم يقبلون تعليمه وهديته لأنه دليلهم إلى الطريق الأمين .

ويستمعون له فيما يبلغهم من أوامر الله ونواهيه ، ولكنهم يستمعون له لأنه يزحزحهم عن طريق الغضب والنكال .

ويجب عليه قبل كل شيء أن يعرف الغيب ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يمتصونهم ولا يقدرون على قتالهم وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك بكثير : وهو تعريفهم بمكان المال الضائع والحيوان الضال .

وليت مهمة النبي عندهم معلقة على دلالة الأمانة في المكافاة المجهول والزمان والمجهول ، ولكنها دلالة الأمان من أخطار محسوسة تشبه تلك الأخطار التي نحللنا منها المراسد ومكاتب التأمين . فها أخطار الحروب وأخطار الوباء وأخطار المصائب في الأقارب والأعزاء .

ولم يبلغ أحد من أنبياء بني إسرائيل مكانة أعلى من مكانة يعقوب الذي ينسب إليه بنو إسرائيل ، أو موسى الذي يدينون له بالشرعة ، ثم صمويل وحزقيال وأرميا من أصحاب النبوة غير الشرعيين .

وكل هؤلاء كانت مهمة النبوة فيهم مقترنة بالمهمة الأخرى التي لا تفكك منها ، وهي دلالة الأمان بالمعنى المتقدم . أو دلالة الأمان كما يترافق المرء من المراسد ومكاتب التأمين ، وإن تكن نافعة على الهداية والتعلب .

فإن نبوءات يعقوب بفهم أنهم كانوا يقولون عليه في رصد النجوم . وأن كل اسم من أسماء الأبناء يشير إلى برج من بروج السماء . ولا تستقصى الأسماء هنا بل نشير منها إلى مثلين يفتيان عن غيرهما ، وهما مثل يهودا وشمعون ولاوي . فيهودا جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة . لا يزول غضب من يهودا ومشرع من بين رجله حتى يأتي شبلون وله يكون حضوع شعوب .

وهذه إشارة إلى برج الأسد . وكان عند البابليين برجان أحدهما برج الأسد أرجولا والآخر أرماع أحد نجوم الدب الأكبر . وأمام الأسد في البروج برج يشير إلى علامة الملك *Scorpius Regulus* الذي تخضع له الملوك .

أما مثل شمعون ولاوي « فإخوان » سيوفها آلات ظلم في مجلسها لا تدخل نفسي . . لأسها في غضبها قتل إنسانا وفي رضامها عرقا نورا . . .

وهذه إشارة إلى برج التوأمين : وهو برج إله الحرب « زجل » عند البابليين ويعصرون أحدهما وفي يديه حنجر والآخر في يديه سلاح شبيه الشجل . . وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذي يتعقبه التوأمين^(١)

(1) The oracles of Jacob by Eric Burrows.

وسواء صحت هذه الإشارات إلى الأبراج والنجوم أو كان فيها منقطة
للخطأ والتجوز من المفسرين فالتنبؤات عن مصائر الأبياء بأسمائهم
واضحة لا تخفى على التكذيب .

وموسى الكليم طاله القوم من إسرائيل وغير إسرائيل في مصر بقدرته
على السحر أعظم من قدرة السحرة وأصحاب الكهانة والتنجيم . ثم
جاوزوا تكليف الدلالة معه إلى تكليفه أن يبين لهم الطعام الذى يشبهه
صنوقا بعد صنوف وهم في واد التيه ، بمأمن من جند فرعون .

واحتجاج القوم إلى علم الغيب في عهد صمويل ليسألوه عن الماشية
الضالة ويأجروه على ردها : « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب
فتش عن الاتن . . فقال شاول للغلام . . . فإذا تقدم للرجل ؟ لأن
الحز قد نفذ من أوجيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟
فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدي ربيع شائل فضة . »

ولم يخفى بنو إسرائيل بالتنبؤات بعد صمويل كما حفلوا بتنبؤات أرميا
وحزقيل ، وكلها نبوءات عن أخطار الخوادم التى تصيب قومهم
وتعيب غيرهم من الأقوام أصحاب الدول في وادى النيل وبين
النهرين ، وكان الإنباء بالغيب عن هذا المثال هو المهمة الأولى من مهام
كبار الأنبياء ، وربما تحدث عن النبيأ أبياء من غير هذه الطبقة ليذكروا
مصائر أفراد معلومين إلى جانب مصير الأمة كما قال النبى حاموئس في
بيت إيل : « أنت تقول لا تنبأ على إسرائيل ولا تتكلم على بيت
إسحاق . . وللتك قال الرب : إن امرأتك تترن في المدينة وبنيك
وبناتك يسقطون بالسيف وأرضك تقسم بالحلل ، وأنت تموت في أرض
نجسة ، وإسرائيل يسبى سبيا عن أرضه . . . »

نبوة الهداية

ختمت أيام هذه النبوءات جميعا في بني إسرائيل قبل البعثة
الإسلامية بنحو تسعة قرون . لم تتغير خلالها نظرة الناس عامة وبني
إسرائيل خاصة إلى النبوة الدينية . ولم يهتموا بالنبوءات الأولى وما لحق
بها غير الفهم الذى عهدوه فلما ظهرت النبوة الإسلامية لم تكن تكرارا
للتك النبوءات ولا تطورا فيها بل كانت « تنقية » لما من كل مانع لها
من يقايا الكهانات والدعوت . وحامت بمعنى النبوة كما ينبغي أن تكون
ونفت عنها ما ليس ينبى لها من شوائب الأوهام ، وأوحا أنها مرصد
للحوادث بمعنى الطريق أو مكتب للتأمين يقارن القوم على لأمان من
الأخطار .

ليست مهمة النبى أن يعبر الغيب « إنما الغيب لله . »

وليس أصدق من نبي يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة أن
الغيب من علم الله يكشف عنه ما يشاء لمن يشاء .

« يسألونك عن الساعة أبان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها
لوقتها إلا هو . »

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم
الغيب لاستكثرت من الخير وما مضى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم
يؤمنون . »

« قل لا أقول لكم عدى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم
إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إن قل هل يستوى الأعمى والبصير أملا
تفكرون . »

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » .

وآية الآيات مسألة « المعجزات » في الدعوة المحمدية ، فليست المعجزة ممتعة إذا أرادها خالق الكون كله وخالق السن التي يجريه عليها ، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقده ولا تنفع المكابر المبطل إذا أصر على اللجاجة في باطله :

« ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظنوا فيه يرجون لقاولاً إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

« ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الغيب لله فانتظروا إنني معكم من المنتظرين » .

وقد كان الناس ينظرون إلى حوادث الفلك فيحسبونها من الآيات فيهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت . وكذلك كسفت شمس عند موت إبراهيم ابنه عليه السلام فقال الناس إنها كسفت لموته فلم يمهلم أن يسترسلوا في ظنهم وهو محزون انفراد على أحب أبنائه إليه بل أنكر عليهم ذلك الظن ورأها فرصة للتعليم ولم يره فرصة للدعوة فقال : « إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد » .

وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى وهي هداية الضمير الإنساني في تمام وعيه وإدراكه ، فانقطع ما بينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديماً على التأثير في العقول من طريق الحس المخدوع .

فليس في النبوة سحر ولا كهانة ولا هي شعر يزخره فائله . « إله لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون » .

ولابد للمؤرخ أن يترث عند كل وصف من أوصاف الأنبياء الذين كذب بهم أقوامهم ، لأنها جمعت كل ما في عن الأنبياء بين أولئك الأقوام في العصور المتطاونة . فإذا صحح أن جزيرة العرب لم تعرف الأنبياء كما عرفهم بنو إسرائيل وأن النبوءات كانت وفقاً على بني إسرائيل والمنتبين غيرهم من الأمم . فمن أين عرفت أحوال الأنبياء والمنتبين التي وصفهم بها المكذبون وقد وردت جميعاً في القرآن الكريم ؟

فمنهم من كان من المعلمين ويرميه مكذوبه بالجنون ! « أتى لحم الذكرى وقد جاءهم رسول من ثم تولوا عنه وقالوا معاشر غفون » . ومنهم من كان يرمى بالسحر أو الجنون : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » .

ومنهم من كانوا يلحقونه بزمرة الشعراء ويرمونه بالجنون : « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون إنا لنأركم آفتنا للشاعر مجنون » .

وإذا رموه بالسحر وحده قلوا إنه السحر الكاذب تميزاً له من السحر الذي كانوا يعترفون به لكهان معابدهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » .

فالتعليم والشعر والسحر والكهانة والغيوبة - ذات كلها سواها واقعة موصوفة على ألسنة المكذبين من أقوام الرسل الأقدمين . ومن وصفها محترفاً فهذا هو العجب العجيب . ومن وصفها مصلاً فقد استقصاها وزاد عليها ما لم يكن منها . وهو النبوة الخالصة طداية الضمير .

إن المنتبذين من الأقدمين لم يفصلوا النبوة بفواصل حاسم وأن من المنتبذين في بني إسرائيل لمن جمع بين الكهانة واستطلاع الغيب بالاقتراع في الحراب ، وحاش القوم بعد أنبيائهم بأزمة طوال وهم لا يذكرون لهم رسالة أكبر من رسالة الإنذار بأحوادث والأخطار . فإذا كانت النبوة لم تخلص لمهمتها الكبرى قبل محمد عليه السلام فآين هي الكرامة التي نعلو على هذه الكرامة بين مراتب الأنبياء ؟

إن الرسالة المحمدية قد علمت الناس أن بعجبرا للنبوءات إذا لم تكن نبوءة للهداية وللإنذار والبشارة : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن ختم قدمه صدق عن ربهم . . . »

وهذه هي النبوة المحمدية .

وهذه هي النتيجة التي لم تأت من مقدمتها . أو هذه هي النتيجة التي لم تأت من جميع مقدماتها

وهذه هي آية العمل الإلهي بين أعمال الناس .

سيد الأنبياء نشأة الأنبياء

إن وجهة الدعوة النبوية تبين من نشأة النبي التي أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة ، فإذا عرفنا نشأة النبي بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله في هدايتهم ، وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النسي منذ هيأه الله حيث جعله أهلاً لرسالته

وسكن غرائب التاريخ في أمر الأنبياء كثيرة ، ومنها هذه الغريبة التي تكاد أن تشمل الأنبياء أجمعين . وهي إحمل التام بتفاصيل نشأتهم بين دوبيهم وأنواءهم . فلا يخصى التاريخ شيئاً من هذه التفاصيل عن نشأة نبي من كبار الأنبياء غير محمد عليه السلام ، وكل من عداه من جلة الأنبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط .

وعلى هذا يقل عدد الأنبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم ، ولانستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم وهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وعلى بعض الأنبياء المذكورين في العهد القديم في مناسبات ظهورهم ، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التي نشأوا والرحمة التي اتجهوا إليها .

مها يكن من بداءة الحليل إبراهيم فالأقوال متواترة على زعامته

لقومه حين هاجر بهم من جنوب العراق إلى شماله ومن شماله إلى أرض
كنعان .

كانت مهمته إذن مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم . وكان عليه
أن يتولى هديتهم في شئون دنياهم وشئون دينهم . وبخاصة حين يخشى
الخطر عليهم من غضب الله ونقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان

وينبغي أن نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الإلهي كان خطرا محذورا
ربما من تعبدوا لجميع الأرباب والديانات الأولى . وأن إيمان الناس
بالإله في المهود الأولى إنما كان على أقواء إيماننا بحماية الرب الذي يعبدونه
دون سائر الأرباب . فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغفل بقومه وهو يعلم سبل
نجاتهم . وقد كان إبراهيم الخليل زعيم أسرته الذين هاجروا معه .
فكان عليه أن يهديهم الطريق . وأن يهديهم كل طريق في هجرة الجسد
والروح :

وتتفق الأقوال على أن إبراهيم خلف أباه حين أنكر أرباب القوم
ودعا قومه إلى الكفران بالأصنام . وليس في هذا ما ينبغي زعامة على
الذين هاجروا معه من أسرة وذوى قرياه وتابعيه . فربما كان الخلاف
على الإقامة والمنصاعة وإرضاء ذوى السلطان شيء من المذاباة .
فاستكان الشيخ الواقع وفر الكهل القوي من هذه الاستكانة . وقد
رأينا أن ثورة النفوس كانت تبلغ غاية مداها في سلالة إبراهيم حين
يؤمنون بعبادة إنسان أو إنامة الصم مقام الإله الذي في السماء . قلعل
المفترق بين إبراهيم وأبيه إنما كان على عبادة جديدة أقحمت على القوم

من هذا القبيل . فتحا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل في طريقه . وأدى
لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة
بهذه النبوة مهمة زعيم أمين .

نبوة موسى

ويريد فرويد أن يحل قيادة موسى عليه السلام من قبل هذه
القيادة . ولكنه يذهب بعيدا حين يرعه أن موسى كان من المصريين
الذين دانوا بعقيدته « أتون » وكفروا بعقيدة آمون . فلما نصب الكهنة
على الوحداية التي جاءت بها عبادة أتون حول موسى أن يستضعف
من اليهود في أرض مصر بين يديهم هذه العقيدة في ذلك الزمان .
وأضاف إليها ما تقدم من علم بدني « يهو » حين نجا بنفسه من صحراء
سيناء وانتق في أرض مدين سبي الصحراء

ألف فرويد مشهور - وهو إسرائيلي - كتابا خاصا عن موسى
والوحداية . *Moses and Monotheism* حاول فيه جهده أن
يرجع بأصل موسى عليه سلام إلى الأسرة المصرية المالكة . وقال إن
اسمه نفسه يدل على أصله مصري لأنه مؤلف من كلمة ابن ومن للاحققة
التي تشبه الموحد في أسماء رعمسيس وتحتومسيس وأموسيس .
وقصته في الماء على رأى فرويد تقابلها في البابلية قصة سراجون الملك
الذي وضعته أمه على حافة النهر وحملت له مهدا عائنا من السلال .
وقد توسع فرويد في تحصيله فقال إن أدوماي التي أطلقها العبريون على
الإله إنما هي أتون أو أتوم المصرية . وأن موسى عليه السلام وفق بين

ولاشك أنه كان يعضى إلى نبي مدين فيها يسقط له من أمر عقيدته وعبادته ، وأنه حكى له بأمره من العقائد المصرية وعبادات المياكل والكهاني ، ووازن طويلا بين هذه العبادات وعبادة البادية كما تلقاها من أستاذه المديني ومن هداية الوحى والإلهام .

فلما عاد إلى مصر ليخرج بقومه منها كان هذا الخروج حيلة من لا حيلة له في القاء ، ودعاهم إليه باسم الله فأطاعوه بعد لأى وبجادة ، ولم يظهر من سلوكهم معه أنهم خفوا إلى الخروج من مصر طراعية بغير دعوة ملحة وإلتاع عسير .

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية ، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسم الدينية في مصر وودوا لو أنهم يعودون إليها أو يعيدونها منسوخة ممسوخة في الصحراء ، وخطر لهم أن الإله الذى دعاهم موسى إليه إنما غرر بهم ليهلكهم ويحقى على آثارهم . واحتاجوا في كل خطوة إلى تأكيد الوعد بالأمان ورغد العيش بعد أعوام التيه والانتشار

فهذه الرسالة الموسومة هذه العوارض الطبيعية لانفهم إلا على خطة واحدة ترسم أمامنا كما كانت لأنها هكذا ينبغي أن تكون

حجر موسى مصر بعد مقتل المصرى وتهديد بنى إسرائيل ، قبل غيرهم بالإبلاغ عنه ، فضلا عما يخشاه من ملاحقة ولاية الأمور .

ولم يحظر له قبل تلك المحنة أن يفتح قومه بالرحيل من الديار المصرية ، فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبي مدين ولح بعينه مطارح الرحلة وانقار بين مدين وسهوب سيناء وكنعان ، وطاب

له مقام البادية فلم يستعظم المشقة في دعوة قومه إلى مثل هذا المقام . تدبر الأمر وصحح العزم على التحول بانقوم من مصر إلى أرض كنعان ، وصرف الجهد الذى لاجهده بعده في إقناعهم باسم الإله الذى اختارهم للنجاة ، ولم يزل يحذر عليهم ترك هذا الإله عند أبسر دعوة وبغير إغراء على الترك في أكثر الأحيان .

وهذه أمثلة من تحذيراته تدل على الجهد الحثيث في تحويل قومه من العبادة التى كانوا عليها إلى العبادة التى دعاهم إليها .

فن هذه التحذيرات في سفر التثنية يقول لهم : « لا تسأل عن آلتهم قتلا كيف عبد هؤلاء الأمم آلتهم فانا أيضا أفعل هكذا لاتعمل هكذا للرب إلهك لأنهم قد عملوا لآلتهم كل رجس مما يكرمه الرب »

وحذرهم من الأبياء : « فإذا قام في وسطك نبي أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كسبك عنها قاتلا تذهب وراء آلة أخرى لم تعرفها وتعبدما فلا تسع لكلام ذلك النسي . . . »

وحذرهم من الأخ والابن والزوج والمصاحب أن يغويهم قتلا : « تذهب وتعبد آلة أخرى . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه بل قتلا تقتله »

وحذرهم من المدن التى يدخلونها أن يدعوهم اللثام إلى عبادة أربابها : « فصرىا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرسها بكل ما فيها مع بهاؤها بحد السيف »

وإذا سمع عن أحد من إسرائيل : « أنه يذهب ويعبد آلة أخرى

ويسجد لها أو للشمس والقمر أو لكل من جسد السماء . . . فأخرج ذلك
أو تلك المرأة . . . وأرجسه بالحجارة حتى يموت .

. . .

ولاتغير هذه الحقيقة بما يقال - تأييدا أو تنقيداً - لنسبة الكتب
الخمسة الأولى من العهد القديم إلى موسى عليه السلام أو سببه بعضها
إليه وبعضها إلى الأنبياء من تلاميذه وتابعيه ، فإن أنبياء بني إسرائيل
جميعا من عهد موسى إلى مبعث عيسى عليه السلام لم تكن لهم من
مهمة غير هذه المهمة ، وهي تحذير بني إسرائيل من عبادة إله غير الإله
الذى دعاهم إليه صاحب الشعيرة وتبكيهم كلما انحرفوا عن طريقه
واستبدلوا بملكته ملة أرباب آخرين ، وهؤلاء إلياس وأرميا وحزقيال من
أشد النعاة على بني إسرائيل في هذا الأمر لم يتجرد أحدهم لرسالة غير
هذه الرسالة ، ولم يكن عم إلياس إلا أن يحذرهم عاقبة « إغاضة الرب »
إذ كان عبرى قد ملك على إسرائيل . . . وعمل الشرقي عيني الرب
وبلغت سيئاته أضغاث سببات من قبله وسار في جميع صديق يربعام بن
نباط وفي خطيئته التى جعل بها إسرائيل تخطئ لإغاضة الرب
بأباطيلهم . . . وملك آخاب بن عبرى فتمتد ابنة ملك الصيدونيين
زوجة سار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا له في بيت البعل الذى
بناه في السامرة .

ولم تكن رسالة أرميا إلا كهذه الرسالة حيث أُنذروهم في بعض مراتبه
قائلا : « . . . إنكم تبخرون للبعل وتسبرون وراء آلهة أخرى لم
تعرفوها . . . الأبناء يلتفتون خطبا والآباء يرفقون النار والنساء يعجن

العجين ليصنعن كعكا لملكه السموات ولسكب السكايب لآلهة أخرى
كى يغيظوني . . . » ويضئ النبى متندرا متوعدا ناعيا على عشاوهم
جميعا « أنهم أبرأ أن ي...وا سلاما رذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها
ونقض بيت يهوذا وبيت إسرائيل عهده الذى قطعه مع آبائهم »

ومثل هذا الوعيد يستمع من كتاب حزقيال حيث يقول لشيخ
إسرائيل : « إنى آخذ بيت إسرائيل بقويهم لأنهم كلهم قد ارتدوا عني
بأصنامهم . . . وإن كل إنسان من بيت إسرائيل أو من الغريباء
المتغربين في إسرائيل يرتد عني ويصعد أصنامه إلى قلبه . . . ويمضى إلى
البنى ليسأل عني فأنى أنا الرب أجيئه بنفسى وأجعل وحى ضد ذلك
الإنسان وأحده آية ومثلا وأستأصله من وسط شعبي . . . فإذا ضل
النبى وتكلم كلاما فأنا الرب قد أضللت ذلك النسى وسأمد يدي عليه
وأبيده من وسط شعبي إسرائيل . . . »

فشعب بني إسرائيل ، يستغن قط عن الإقناع المتتابع للإيمان بالإله
الواحد الذى دعاهم إليه موسى عليه السلام ، ولم يتحرك من مصر فرارا
بعقيدته بل كانت هذه العقيدة هى وسيلة الإقناع لحمله على النجاة
بنفسه من عوالب البقاء حيث طاب له البقاء ، ولم يزل في الطريق يحتاج
إلى تجديد هذا الإقناع في كل مرحلة ويمض إلى العودة بعد كل نفلة ،
ونظ كذا ذلك بعد انتهاء أيام التيه وإيوائه إلى القرار عند أرض كنعان .

ونشأة موسى التى عرفناها من مصدرها لدى لا مصدر لنا غيره هى
التى تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما وضحت من الكتب
النسوبة إلى موسى والكتب التى نسبت إلى الأنبياء من بعده ، فخلاصة

هذه النشأة أن كلليم الله نرى في مصر وخرج منها خفية بعد مقتل
المصري الذي صرعه موسى انتصارا لرجل من بني إسرائيل ، ولم يكن
خاطر الخروج ببني إسرائيل قد خطر له أو لأحد من ذرى الزعامة بين
عشائر قومه ، ولكنه عاش في البرية إلى جوار الهداية النبوية في أرض
مدين ، وراض نفسه على حياة النك والاسلهم وهو يفكر في أسرته
وقومه ويزور الأرض من حوله ، وتلقى الدعوة الإلهية بعد طول التدبر
والرياضة فعاد إلى مصر لإقناع قومه بدعوته وإقناع السادة الحاكمين بها
أن تيسر له ذلك فلما للخطر من ملته وعقيدته . ولم يكن يرصيه فيما بدا
من طوابع السيرة وخواتيمها أن يبني شعب بني إسرائيل حيث استعاب
البقاء ، لأنهم رأى لهم مصيرا في البادية أكرم من هذا المصير ورأى أن
العقيدة التي دعاهم إليها كقيلة بمايتهم من الضياع بين العشائر والملل في
أرض البادية أو أرض الحضارة .

وهذا هو حكم التوفيق بين النشأة والرسالة في حياة الكلم عليه
السلام

وقد عرضت لنا في خلال هذه السيرة قصة مدين ودعوته النبوية
التي أشارت إليها كتب إسرائيل من بعيد ولم تذكر بشيء من التفصيل في
غير القرآن الكريم . ولكنها جاءت بالنشأة والرسالة متوافقتين ذلك
توافق الذي يغني عن كل دليل على صحة الأصل الأصل

فلما عن مدى اتقواف في كتابنا عن أنبياء إبراهيم الخليل :
أما الأسباب السببة التي أوجبت قيام الدعوات النبوية في تلك المدن
فهى أسباب كثيرة لم تكن توجد يومئذ في غيرها هذه القوة وبهذه
لكثرة . وأقوى تلك الأسباب مساوئ الاحتكار والاستغلال . فإن

تجارة العالم إذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك سادت في كل مدينة
إلى فئة قليلة من السدة واصحاب البسار يمتكرون المقايضة والقل
ويبرهنون في أساليب معاكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأحور
على الرجال والمطايا وجند الحراسة . ويقتنم هؤلاء الممتكرون فرصتهم
ليخدعون البسطاء ويغشون على الأصول والشرائع ويأخذون باليمين
والشمال من الوارد ويصادر والعادي والرائع ولا حيلة للتجار فيهم ولا
لناقل التجارة لأنهم يقضون على الرعام وليس في قدرة دولة أن تحاربهم
إلا بالاشتراك في حرب مع دولة أخرى أو بإتفاق أموال في الغزو والحصار
يريد على الأموال التي يقتصبها الممتكرون أو يخلطسوها . وقد يغلو هؤلاء
الممتكرون في الجشع وتتحكم حتى يدفعوا الدول إلى المجازفة بالغارة مرة
تربتها من مرات

كذلك صنع تنجوت خليفة لإسكندر مع أحد هذه المدن في
زمانه وهي سلع - أي البزء - فجرد عليها حملتين ولم يفلح في غزوها
وهاجمها زاجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها إلى بصرى . ولم
يبقى من حيفا غير مدن صفار

إن آفة مدين هي هذه المدن على مدرجة الطرق وأن قصتها في القرآن
الكريم هي قصة التجارة الممتكرة والعبث بالكيل والميزان ونقض الأسعار
والتمريض بكل مسيح من مباح الطريق . وليس أدل على حدوثها من
التوافق بين النشأة والرسالة كما جاءت في مواضع مختلفة من التنوير
وبإدماها سورة الأعراف

والمدن أحامهم شعبيا قال يا قوم اعدوا الله ما لكم من اله غمر

قد جاءكم بينة من ربكم فآمنوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا أنفسكم في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتغوها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لمخرجنث يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كأدهين قد فترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا وبنا انتج بئنا وبين قومتنا بالحق وأنت خير القانتين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه نحن اتبعنا شعيباً إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيباً كأن لم يفترها فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسئ على قوم كافرين .

فرسالة شعيب عليه السلام إنما كانت رسالة خلاص من شرور الاحتكار والجداع في البيئة التي تعرضت له بحكم موقعها من طريق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم . والأغلب على التفسير أن جزيرة العرب تعرضت لضروب من هذه الآفات وجاءتها الرسالات التي تصلحها في إبان الحاجة إليها . ومنها رسالات هود وصالح وذو الكنل وإخوانهم من الرسل الصالحين الذين لم تقصص علينا أخبارهم في كتاب

عيسى عليه السلام

وقد اختتم عهد النبوة والرسالة في بني إسرائيل بظهور عيسى عليه السلام . ولا تعرف عن نشأته في طفولته غير القليل ولا تعرف شيئاً عن أيامه من الثانية عشرة إلى الثلاثين مبعثه إلى قومه من بني إسرائيل . ولكن نشأة المعصومة من وجه الاستعداد للنسوة معروفة ببعض التفصيل كما أشيرنا إلى ذلك في كتاب عبقرية المسيح

كل عصر الميلاد . ترقبت النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يتربق الراصدون كوكباً حان موعد طلوعه . وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليفة موعداً مقدوراً في عرف لأكثر من ظهور الخلفاء الموعود

وكان اليهود في عصر الميلاد فريقين فريق يتربق الخلاص على يد رسول من ديرة داب عليه السلام . وفريق آخرون هم من يربون سيرة هيكلاً خاصاً في حرير . ومن تحقق أن هؤلاء السمرين كان في شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص لمخاطر على يد الرسل الموعود . . . وهم ينسبون إلى يعقوب ويدعون أنهم دون غيرهم الجديرون باسم الإسرائيليين . .

وقد تكاثرت النذيرون قبل مولد السيد المسيح وهم المنذرون لصحبة الخلفاء المنتظر . لأن موته عليه السلام ، وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري . وهو الموعد الذي كان منتظراً لبعث المسيح الموعود . لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة . ومنهم من كان يقول إن اليوم الأخير كان ألف سنة كما جاء في الزمان .

وأن عمر الدنيا اسرع إلى - تقضى ستة أيام منه في العناء والشقاء وبأق
اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم السبت للراحة والسكينة - فيدوم ألف
سنة كاملة هي فترة الخير والسلام قبل فناء العالم - ولا يزال الغربيون
يعرفونها باسم الأنفة Melnium - ويطلقونها على كل عصر موعود
بالسعادة والسلام ، والذين قدروا أن القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة
من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية
الألف السادسة ويؤمنون بسود دولة المسيح الموعود ، لكنهم كانوا
كغيرهم في انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء
الخليقة ، كانت بداية الألف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه
الندبيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدا منهم يسعده
القدر فيكتب الخلاص على يديه ، والمهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى
السيد المسيح أن النبي يحيى المغتسل - يوحنا المعمدان - كان علما من
أعلامهم المعدادين ، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد
عليه ، وأن بعض المؤرخين بحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس
عليه الأمر بين النذيري والناصري وهما في اللفظ العبري متقاربان ، ومن
هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم
يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم ، ولكن
الأرجح في اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة
عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديما ، وأنها كانت
مرقا صالحا للاستطلاع لأن التلألؤ التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ
والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير . . .
ولاشك أن السيد المسيح قد اتجه بدعوته إلى إسرائيل وابتهى منها

الهداية - لحرف بيت إسرائيل افضالة ، ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها
على القوم ولجأهم في الإعراض عنها ، فوجهها إلى كل مستمع لها مقبل
عليها ، قال لهم إن العاملين بالخير ذرية لإبراهيم الخليل أقرب وأوفى ممن
يدعون النسبة إليه بالسلالة ، لأنهم هم أبناء الروح ، وضرب لهم المثل
بربعة العرس التي لم يحضرها المدعون إليها . . . فغضب السيد وقال
لعبده : اذهب عجلا إلى طرقات المدينة وأزقها وهات إلى بمن تراه من
المساكين ، فعاد لعيد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال في
الرحبة مكان . قال السيد فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى
يتملئ بيتي ، فلن يدوق عشاى أحد من أولئك الذين دعوت فم
يستجيب الدعاء ،

ولم تكن رسالة السيد المسيح رسالة تشريع ، لأن الشريعة الدينية
كانت في أيدي أعيان الهيكل ولشريعة الديونة كانت في أيدي أتباع
نيسر ، ولكنه عليه السلام قد جاء بالفتح المبين الذي لم يسبقه إليه سابق
من المرسلين في تصحيح الشرائع بحملتها ، فقد حطمت عنها قيود النصوص
ونقلها إلى مقياسها الصحيح وهو مقياس الضمير ، ومن تحطمت النصوص
أن يكون أبناء النبي هم أتباعه بالروح وإن لم يكونوا من دريته بالجسد .
ومن تحطمت النصوص كذلك أن يكون الخير في ضمير الإنسان لا في مظهر
من مظاهر العالم فإن ملك ضميره فقد ملك كل شيء . وإن ضيع
ضميره لم يبق عنه العالم بما أوسع من أناس وحطام

رسالة النور الجديد

وما تقدم تنجلي المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة
تنطوي في هذه الرسائل

فإنها الرسالة التي تنطوي في تكاليف الزعامة ، فتأتي الدعوة الإلهية
تتمكين زعم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم في جميع
الشئون

ومنها الرسالة التي تقوم على منفعة أمة من الأمم لحراستها في وجه الأمم
الأخرى ، والمثيرة على تذكرها بحاجتها إلى تلك الحراسة

ومنها الرسالة التي ينتظرها لقوم تخفيفا لوعود متعاقبة بفسرها كل
منهم بما ينبغي

ثم قامت بعد هذه الرسائل جميع رسالة محمد عليه السلام ، فلم
يستغرقها مقصد من هذه المقاصد ، إذ لم تكن تكاليف زعامة ولا رسالة
مقصورة على منفعة أمة ، ولا تخفيفا لوعود منتظرة بفسرها كل واحد بما
يشتهي

رسالة محمد عليه السلام رسالة إلهية قوامها أن الله حق وهدى ، وأن
الإيمان به جل وعلا مطلوب لأنه حق وهدى ، هذا الإيمان على
وأقدس من كل إيمان لأنه إيمان بالحق والهدى

لم تكن زعامة محمد على فومه مناطق تلك الرسالة ، لأنه جاء بها بشرا
كسائر البشر عليه من أمانة الهداية ما على الإنسان للإنسان زعيما كان أو
غير زعم

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناطق تلك الرسالة ، لأنها إيمان برب
العالمين ، ولا فضل فيها لعربي على أعجمي ولا لقرشي عن حبشي إلا
ما تقوى

ولم تكن منافسة لوعود ، لأن الإسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير
ما وعد به الناس كافة في جميع البقاع والأرضين

نزاهة العبادة

تعود عند المصابين بداء الخذلان من المؤرخين الغربيين أن يتكلموا عن
نزاهة العبادة ويدترو النعم السهاوي كما وصفه الإسلام بين التفاضل
التي تفلح في عبادة التربية

وما من دين من الأديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، وما من
أمة من الأمم في عصر الدعوة الإسلامية كانت صور النعم السهاوي
عندما مقصورة على صورة واحدة تؤمن بها ولا تؤمن بغيرها

فليس الإيمان بالثواب والعقاب محلا بنزاهة الدين ، وما من دين
يستحق أن يسمى دينا يسوي بين السالحين والمفسدين ، أو يحجز على
النفوس أن تضيح إلى النعم الذي ترغبه

أما الميزان الحق للعبادة لتربية هو الصفة التي ينصف بها الإله المعبود
ومن أجلها يتعبد له المؤمنون

ونزه العبادات - ولا ريب - هي العبادة التي يدين بها المؤمن لله
جل وعلا لأنه حق وهدى ، ولأن الإيمان به هو الصلح والصلح

هذه العبادة أنزه من العبادة التي تتجه بها الأمة إلى الله لأنه يقوم
مقام الحارس في وجه الأمم التي تخشاها ، وهي أنزه من العبادة التي تقوم
على تقاضي الوعود أو العبادة التي تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف
الزمانة والزعامة أمانة إنسان يدعو بها اخوانه في الإنسانية ، ويرفع
مكانها فوق مكان أنها نشأت في جزيرة العرب حيث لا غربة أن تكون
الرسالة أمانة زعامة أو تكون حراسة أمة ذات عصبية أو تكون على

الإجمال منفعة محدودة في وجه العالم كما نجد الصحراء ما حولها من البقاء والأرضين .

سيد المرسلين يحق من جاء بالرسالة المنزهة المثل ، وهذه هي رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال ، قبل شهادة المتدين لدينه أو المتعصب لعصبته والمقلد لما يحلبه التقليد عليه

الوساطة

يقوم الإسلام على خمس فرائض : هي الشهاداتتان ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج إلى بيت الله

ولا تتوقف فريضة من هذه الفرائض الخمس على وساطة بين الخالق والمخلوق . فحيث وجد المسلم في وسعه أن يؤدي صلاته وهما أن يكونا ثم وجه الله .

وإذا وجبت صلاة الجماعة فكل مسلم يحسن الصلاة يجوز له أن يؤم المصلين حيث اجتمعوا ، ولا يشترط اجتماعهم في مسجد معلوم

ويعتاج المسلمون إلى الحاكم لتوقيت شهر الصيام ، ولكنهم يحتاجون إليه لأن وسائل الرصد والجمع تيسر له حيث لا تيسر لكل فرد من أفرادهم ، شأنه فيما عدا ذلك كشأن جميع المسلمين

وإذا حج المسلم إلى بيت الله فليس في بيت الله كاهن يقدم له قربانه أو يمن عليه شعائره ، وإنما يقرب لنفسه ويقوم بشعائره لنفسه ، فإن جهل حكما من أحكام الحج فإنما يسأل عنه سؤال المتعلم للمعلم ولا يحتاج في قبوله إلى وساطة من وسيط

وبصح للمسلم أن يؤدي زكاته كما يصح له أن يسلمها لولى الأمر ليجمعها ويفرقها على مستحقها ، ولا عمل له فيها يتم به القرض بعد أدائها

. . .

هذه الفرائض التي تترهت عن الوساطة بين الإنسان وربه قد تفهم على أنها مصادقات متكررة على صحوة التكرار والتوافق بين هذه المصادقات . لولا أنها متممة مستوفاة بعقيدة التزبه التي ارتفعت إلى عابها في الإسلام فإلا في العقيدة الإسلامية منزلة عن الشبهة والقدرة والرمز والهاككة . وليس كمثله شيء ، ولا وسيلة للإنسان إلى رؤيته من حيث لا يراه الآخرون

ومن النعم على بعض المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من الغربيين أن يذهبوا للإسلام بهذا التقدم الكبير في تزبه العقيدة وتزبه الفكرة الإلهية ، وأبسر من ذلك عليهم إن يحسوه ضرورة من ضرورات النشأة في الصحراء : حيث يعود الحس التجريد ولا يرمز إلى الفخامة بروعة البناء

ولكن العائد الدينية نشأت في صحراء العرب وفي غيرها من الصحارى قبل الإسلام ، ولم تنشأ في إحدى هذه الصحارى مجردة من شوائب الوثنية والطوطمية وضروب الكهانات والوساطات بين الإنسان وطبقات من الأرباب دون مقام الإله الواحد المنزه عن الأشياء والنظراء ، وكانت الكعبة في مكة مملوءة بالأصنام والأوثان يتخذونها كما يقولون لتقريبهم إلى الله زلفى ولا يحسون أنها تناقض طبيعتهم الصحراوية في التدن والتعبادة

ومما فزت أصحاب المقارنات أن يذكروه في هذا الصدد أن الأمم
التي تدين لسلطان الهياكل وتقدر على تفخيم البناء إنما كانت تثرب إلى
هيكل واحد تتبعه سائر الهياكل ويستأثر كاهنه الأعلى بالوساطة بين أتباعه
وبين الله ويضيق من قداسه ما يشاء على ما يشاء ، فإذا وجد في
لصحراء هيكلا متفق عليه بين القبائل فهو أخرى أن يمتاز بالتعظيم
والتقديس وأن تحيطه النورة برعاية خاصة لا نظير لها المعابد حيث يكثر
لبناء

• • •

وأولى من ذلك بالنتيجه أن الإسلام يحارب سيطرة توجد في الهياكل
وتوجد في صوامع الصحراء وخيامها وفي التوايت التي تحمل من مكان
إلى مكان كتابوت بني إسرائيل ، لأنها سيطرة الكهان والرهبان التي
تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين . . . « يأبى الذين آمنوا إن
كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن
سبيل الله . . . » وكن مسلم منهي بحكم دينه أن يفتني آثار الأمم الذين
حكوا فيهم رؤساء دينهم و « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون
الله »

فليس لرئيس الدين في الإسلام من فضيلة غير فضيلة العلم والموعظة
الحسنة وتنبه الغافلين من ذوي السلطان : « وما كان المؤمنون لينفروا
كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وذلك هي الفريضة العامة التي يتدب لها

من يقدر عليها من ورثة الأنبياء ، وهم : « . . . أمة يدعو إلى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

• • •

هذا موقف للإنسان في الكون كله بين يدي الله بغير وساطة ولا
فاصل ولا حجاب ، نقدم به الإسلام ولم نعهده له البادية ولا المدينة .
ولكنه نتيجة من تلك النتائج الإلهية الكثيرة التي تقصر عنها السوابق
والمقدمات

دين الانسانية

فلما في صدر هذه الرسالة إتنا نتيج فيها المقدمات ونقدها إلى
تسعين : مقدمات كافية لتفسير النتائج التي تأتي بعدها ، ومقدمات غير
كافية لتفسير جميع النتائج التي تلحق بها ، وقد تبدو هذه النتائج كأنها
منقطعة عن تلك المقدمات أو مستغنية عن تفسيرها .
ونحن نرى في فصول هذه الرسالة تفاوتاً بين المقدمات في كفايتها ،
ولكنه لم يبلغ قط مبلغ التفاوت في مقدمات دين الإنسانية ولا في
مقدمات النبوة كما بسطاناً في موضعها فلو أن جميع الأديان التي عرفها
الناس قبل الدعوة المحمدية وضعت أمام الباحثين يومئذ لما استطاعوا أن
يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب أمة الإنسانية جميعاً من جزيرة
العرب على الخصوص .

ومن الواجب أن نفرق بين دين التوحيد ودين الإنسانية في هذه
الخلاصة ، فقد وجدت أديان تدعو الأمم إلى التوحيد قبل دعوة
الإسلام ، ولكنها لم تكن تدعوهم لأنها تسعى بينهم ونرى لهم حقاً
واحداً في عبادتهم ، بل كانت تدعوهم إلى عبادة ملك واحد في السماء
وملك واحد في الأرض ، كأنها مسألة سيادة لأمسألة مساواة .

وقد جاءت الدعوة إلى التوحيد قبل الإسلام من طريق توحيد الدولة
وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانه ، إذ
كانت القبيلة القوية تغلب على القبائل الصغار فتفرض عليها عادة ربها
وطاعة رئيسها ، ثم يغلب الشعب القوي على الشعوب الصغيرة فيفرض
عليها عبادة ربه وطاعة أمره ، ثم تمتد حدود الدولة وراء بلادها فتصبح

لها الصفة « العينية » ونحسب الأرض كلها عالماً واحداً خاضعاً لشرعيتها
ورشائعها ، فلا يطاع فيه ملك غير ملكها ولا يعبد فيه رب غير ربها ،
ولا يأتى هذا التوحيد على سبيل النسوية بين الغالب والمغلوب أو على سبيل
الهداية والإرشاد ، بل يأتي على سبيل المهر والإحضار ونحوه المطلوب
من سادته في الأرض وسادته في السماء على السواء .

وعلى هذه السنة جرى الرومان على إخضاع اليهود حين فرضوا عليهم
عادة « الإمبراطور » في هيكلهم ووضع الشارة الرومانية على محرابهم ،
فلم يفرضوا عليهم ذلك هداية لهم أو اعترافاً بمساواتهم ، بل فرضوه
لإخضاعهم ونحرم كل معبود في الدولة غير معبودهم . وهكذا صنع
عنه الرومان في مصر وبابل والبلاد الفارسية .
هذا « التوحيد » وجد قبل الإسلام .

ولكنه أهدى عن دين الإنسانية الذي نعنيه ، وهو الدين الذي
يتمجه إلى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب
والأجناس والخمس الهداية للغالب والمغلوب ، فشتان دعوة إلى توحيد
العبادة تقوم على السيادة والاستعباد ، ودعوة إلى توحيد الإنسانية في
حقوق واحدة وهداية واحدة وإيمان واحد بالله لا إله غيره يتساوى
الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح .

لقد كان الإله عند العرب : يسمى إله إسرائيل ويخص من أبناء
إبراهيم ذرية يعقوب بن إسحاق دون سائر العربيين .

قال يروث : « هكذا قال الرب إله إسرائيل ،
ويقول الشعب في كتاب الأيام : « أأنت أنت الهنا الذي طردت

[illegible][illegible][illegible][illegible][illegible][illegible]

החוקים וההנהגות הכלליים
הנכונים והנכונים הכלליים
הנכונים והנכונים הכלליים

1. (א) וְהָיָה כִּי יִשְׁכַּח
 אֶת־הַמִּצְוָה אֲשֶׁר צִוָּה

[illegible]

نعم ياسيد . والكلاب أيضا تأكل من الفئات الذي يسقط من مائدة
أربابها . حيثئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم إيمانك . ليكن لك
ما تريد . . .

وتحولت دعوة السيد المسيح ودعوة الرسل المسيحيين إلى الأمم غير
مقصودة على بني إسرائيل ، ولكنهم كانوا يدعون الأمم لأنهم أحق
بإبراهيم من أبنائه بالجسد ، إذ كان المستجيبون للدعوة أبناء إبراهيم
بالروح .

• • •

وإذا رجع تاريخ الأديان قبل ألفي سنة لم يوجد منها دين واحد
خرجت دعوته من نطاق القومية فعمت شعوب الإنسانية على اختلاف
أصولها وأجناسها .

وقد وجدت في الصين شعوب بلغت في ذلك العهد مائة مليون أو
تزيد ، ووجدت في الهند شعوب تفاربها في العدد ولم يعرف هؤلاء ولا
هؤلاء دعوة الإنسانية إلى دين واحد بل كانت الصين تدين بعبادة
الأسلاف كل بيت له هيكله وعادته على حدة . وكانت ديانة الهند
ديانة الطبقة الغالبة بفرد الأحبار بتلاوة أسفارها وبجرمون على الطبقات
المهرومة تلاوتها والتعرض لقمعها وتفسيرها . ويقول جوتاما ريشي في
بعض كتب الفيدا : « إذا سمع الفيدا رجل من المبتدئين فن واجب
ملك أن يصب الرصاص المذاب في أذنيه » .

• • •

هذه مقدمات الدعوات الدينية قبل الدعوة المحمدية بعدة قرون .
وتقف المقدمات عند هذه الدعوات . ثم يستمع الناس إلى دعوة من
أعلن جزيرة العرب نادى بني الإنسان جميعا إلى دين واحد وإله واحد
وحق واحد :

« يا أيها الناس يا حقاكم من ذكر ربي وحملاكم شعور وقدش
تأمرؤا به فكمركم عند الله فكمركم »

وما سلطان لا كفة الناس »

وما سلطان لا حمة لعلمين

وبنفس رسول الدعوة آيات الكتاب الذي أنزل إليه يقوب في تفسير
هذه الآيات : « لا فصل لعربي على عجمي ولا لقرشي على حبشي
... »

ولو لم يكن من سعة المسافة بين المقدمات وهذه النتيجة غير هذا
الذي أجملناه كالكافية

لكي العجب منه بتضاعف ويتعاضد حين تأتي النتيجة من أعراق
الجزيرة العربية حيث منشجر الأسباب والأعراق على نحو لم يعرف له
مثيل بين الأمم والعصبيات .

وبنية نرى بعد ذلك تعجب فوق ذلك العجب انتفاع
بتعاضده . فإن رسول الذي نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم لم
يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسا ونسا من أئوبه الشريفين .
بل كان من شرف الأئوب في الدؤابة التي يعترف بها النظراء ويعتبر لها

المكابرون . . . وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس إنهم إذا صلحوا واستقاموا : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا ابتساءنون »

المسئولية الفردية

ولديانة الإنسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها ، فلم يكن هذا الضمير حساب وعليه تبعه فلا دهانة لإنسان ولا لجملة الناس .

وفكرة التبعية الفردية ، والمسئولية الفردية بسيطة سهلة الفهم تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم في كل بيئة اجتماعية فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها وسهولة فهمها وتجدد الحاجة إلى تطبيقها لما خلا المجتمع الإنسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان الاجتماع .

لكن الواقع أن هذه المفكرة البسيطة قد أهملت وظلت مهملة من عهد البداوة إلى عهود الحضارة الأولى . لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد . إذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه ، فإن لم تسلمه « تصامت » في الدفاع عنه ووقعت الحرب بين القبيلتين أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه : وقد ينوثون الثأر إلى الأبد والأستقام .

ففى نظام القبيية على « مسئولية » القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتأنف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم . فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير في الجماعات التى تقوم على

المحافظة ورعاية المآثورات السلفية . وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة - التى كانت تسمى ام الشرايع - جعلت الأب مسئولاً عن الأسرة وأناحت له التصرف في أرواحها وأموالها ، وقد ناظرتها في الشرع شريعة حموراني فجعلت من حق الرجل الذى تقتل بنته أن يتسلم بنت القتلى ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم إنساناً مستقلاً بحياته .

وكانت في الهند حضارات تأخذ تبدأ المسئولية الفردية ولكنها ترجع بها إلى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة حتى لا تعرف لها بداية منذ أزل الآزال . فهو مولود بجوارحه وآثامه وكفارة تلك الجرائم والآثام إلى الأجل المفلدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمل بعد ميلاده بل هي سابقة للميلاد لاحقة به آماداً بعد آماد . . .

وعلى هذا تعانت الأجيال على اعمال المسئولية الفردية في أصور البداوة وأطوار الحضارة . ولم تعرف حضارة واحدة دانت بهذه المسئولية على النحو الذى نفهمه الآن أو على نحو قريب منه غير الحضارة المصرية في عصور الأسر القديمة . ثم طواها الزمن وطوى معها شرائعها فلم يبق منها إلا البسير .

• • •

ولا نطيل في شرح « المسئولية الفردية » كما اعتقدها أناس من المتدينين الكتابيين نس الإسلام . ولكننا نشر إلى طرف منها للإيانة عما انتهت إليه واستقرت عليه عند ظهور الدعوة الإسلامية .

لنى سفر التكوين أن « نوحاً شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عبدة أبيه وأخبر أخويه خارجاً . . . فلما

استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابيه الصغير فقال ملعون كنان .
عبد العبيد يكون لإخوانه

وفي سفر يشوع أن « عاخان » سرق من غنائم القتال في وقعة عاي
فانهزم الإسرائيليون وأجاب عاخان يشوع وقال حقا إني قد
أخطأت إلى الرب إله إسرائيل . . . وأبت في القيمة رداء شعاري نقيما
ومثني مثقال من الفضة وثمان ذهاب وزنه حمسون مثقالا فاشتيتها
وأخذتها وهامى مطمورة في الأرض وسط خيمتي والفضة تحتها
فأخذ يشوع عاخان بن زرح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبنته
وبقره وحميده وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه وصعدوا
إليه وادي عجز . . . قال يشوع : كيف كذرتا يكسرك الرب في هذا
اليوم . فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم
بالحجارة وأقاموا فوقه رحمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم . فرجع الرب
عن حسره غضبه .

وكان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده . بل
يسأل عنها كل ولد من ذريته .

أما الدعوة الإسلامية فالمسئولية الفردية فيها شيء جديد كل الحدة لم
يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة فقط لإحدى هذه المقدمات . ومعجزة
المعجزات فيها إنها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل حرف قائم
ويعترفها كل نظام مصطلح عليه في المعاملات والعقوبات .

قامت بها في أممات الجزيرة العربية . ولا قانون فيها غير قانون النار
والأشريعة لها غير شريعة القبيلة . وتعلم الناس لأول مرة في تاريخ البداوة
والحضارة « أن ليس للإنسان إلا ماسى » وأن جيلا من الأجيال
لا يؤخذ بحريرة أسلافه ولا يؤخذ خلفاؤه بحريرته : « تلك أمة قد خلت
لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »
و « كل امرئ بما كسب رهين »

مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الإسلام وحده
مبتدئا بغير سابقة . بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع
والمتناقضات .

ولم تكن هذه المرحلة النافذة من نوافل الرأي على حواشي
العقيدة . ولكنها هي الفتح الأكبر من فتوح الضمير في جميع مراحل
التاريخ إذ لا فواء للخلق ولا للدين « غير النعمة » ولا معنى بغير النعمة
لتكليف ولا حساب .

الكعبة

ونعود بعد هذه المقدمة جيبا إلى حديث الكعبة أو الكعبات التي ثابت إلى قبلة واحدة : هي قبلة الكعبة المكية خاتمة المطاف .

يدور البحث مابلور في تاريخ العرب المدينى ثم يتصل من إحدى نواحيه بتلك البيوت التي تعرف ببيوت الله ، أو البيوت الحرام . ويتصدها الحجاج في مواسم معلومة يشترك فيها القبائل من سكان البقاع القريبة ، ويتعاهدون على المسألة في جوارها .

وكان منها في الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وعلى بيت الأقبصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت رضاء وبيت نجراد وبيت مكة أشهرها وأبقاها ، عدا بعض البيوت لصغار التي يعرفها الرحالون ولا تقصد من مكان بعيد .

وكان بيت الأقبصر في مشارف مقصد القبائل من قضاة ولحم وجذام وعاملة ، يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده ويلبسون قبضة من الدقيق مع كل شعرة ، وهو الذي عناء زهير بن أبي سلمى بقوله :
حلفت بأنصاب الأقبصر جامدا
وما سحقت فيه المقادير والقمل !

وبيت « ذى الخلصة » كان يدعى بالكعبة اليمنية في أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وروى البخارى أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر بهدمه فهدم ، وأن الذين كانوا يسمونه بالكعبة

اليمنية كانوا يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تميزا بين الكعبتين .

وكان صنعاء بيت رقام يحجون إليه وينحرون عنده فطلب حبران « يقرءان التوراة » من ملك اليمن أن يأمر بهدمه « لأنه شيطان » يفتن الناس : فذبح لها فهدماه .

وفي بيت رضاء يقول المستور بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة نركتها فقرا بفراع أسحا
وأهان حد الله ل مكروها وبمثل عبد الله أغشى انحرا

أما كعبة حبران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة عبد الله فلى في رحلته (٢٥ ينية سنة ١٩٣٦) وهي التي قال فيها الأعشى يخاطب نافته :

فكعبة حرون حتم علب لك حتى تنأخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد الله حيج وقبسامو خير أربابها

ويقول بعض المؤرخين ومهم أبو المنذر - إن هذا البيت وبيت سنداد بين الكوفة والبصرة لم يكونا من بيوت العبادة وإنما كانا من المزارات تشرفه التي يذكرها السياح .

اسم الكعبة

وقد ذهب للزورخون مذاهب شتى في تفسير اسم الكعبة : فقال بعضهم إنها كانت كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعبها ، وأن بناء

من الروم عمل في بنائها ومهندسها فاستعير اسمها من اللغة الرومية ، وقبل بل كان بناؤها من الحبشة ومنها - أى من الحبشة - عرف العرب بناء هذه المعابد وأما لما لأنهم أمة خيام لم تتأصل بينهم صناعة البناء وهؤلاء المؤرخون وأشباههم يتشبّهون بالفرع ويفنون الأصل بجذوره وجذوعه عليه .

فهما يكن من لغة البناء الرومى أو الحبشى فالقبائل العربية لم تبن تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشئ لها بيتا يسمى « الكعبة » أو المكعبة في اللغة الرومية ، وإنما وجدت الحاجة إلى أنيب الحرام ثم وجدت الوسيلة إلى تلك الغاية ، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش لبناء أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الأمم التي تقدمت في هذه الصناعات . وقد احتاج سليمان بن داود إلى بناء هيكله فاستعان بالصناع العاملين في الحجر والمعدن والحديد من شواطئ البحر الأبيض إلى جواره في الشمال ، ولم تقم العقيدة تبعاً لأصحاب الصناعة بل كان أصحاب الصناعة جميعاً ممن يخالفون تلك العقيدة ويسمون بسم الكفر والإبكار عند المعتقدين بها .

ولم نعرف أن معداً سمى بشكله أو كان له شكل غير إشكال الأبنية التي يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة ، وليست مادة « كعب » بالعربية عن اللغة العربية لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ويسمون الفتاة كاعبا إذا كعبت بلباها ويلعبون بالكعوب ويشلحون بالرماح وهى من القضب أو من الأقية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت في لغتهم إلى القانون وهو العصا التي تتخذ للقياس .

البيوت الحرام

ومها يكن من أصول هذه الأسماء والأشكال ، فالأمر الذي لا يجوز فيه الشك أن « البيوت الحرام » وجدت في الجزيرة العربية لأنها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لأن أحداً اخترعها لتعبد وتقصد ، وإنما كانت عبادات والمعبودات مرعية موروثة ثم أقيم لها مكان الذي تعبد فيه وتقصد من أجله

وقد اجتمع لبيت « مكة » من البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر في أنحاء الحررة . لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب . وكانت لازمة من يحمل تجاره اليمن إلى الشام ولمن يهيد من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب ، وكانت القبائل تلود بها ثدياً مطروقة تزدد عليها ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها . فليست في مكة دولة كدولة النابغة في اليمن أو كدولة في حيرة أو الفساسة في الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطئ أو بين برادى الصحراء . فهى - أى مكة - مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبال من عداها ، وهى إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والقبائل الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يمشرون كل ما دخلها من تجارة .

كانت « مكة » عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا فيصيرية

والانعية ولا نجاشية كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب . ولما تمت لها الحصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها ويحدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه .

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغنى عنها بتحويل الطريق منها أو مدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لما مكنتها وقداسها كما كانت من أقدم عهودها وهي قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم في التوراة . فإنها هي « ميثا » المشار إليها في سفر التكوين وهي « ميثا » التي يقول الرحالة « برتون » إنها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ، ويقول الرحالون الشرقيون إنها كانت كذلك بيتا مقصودا للصائين الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون . ونرجح نحن ترجيح الظن أن سكان شواطئ الهند وخليج فارس وجدوا فيها مساحة لعبادة آرباهم العلوية وأفلاء الساء كلما ترددوا عليه في تجارتهم من أقدم عهود التاريخ . فكان حكمهم فيها حكم القائل البادية التي وجهت فيها محلا لعبادة أولئها في مواسم الحج والإحرام .

ومن المحاولات التاريخية التي لاشك في بواعثها محاولة عام الفيل ومحاولة عثمان بن الحويرث أن يدخل مكة في حوزة الروم وأن تسول دولة الروم من ثم على تجارة شرق كلهم من شواطئ اليمن إلى مشارف الشام .

فالحبشة كانت تخشى نفوذ الفرس في اليمن وكانت تنق من دولة الروم معونة على مقاتلة التابعة الهانين . وكانت تحذر دولة الروم لأنها

كانت تلك الوصول إلى بلادها من وادي النيل وتملك طريق البحر الأحمر في نهايته القصوى . فلم تخرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وأرباط كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وانتهت بهزيمة ذى نواس منك اليمن فقتلهم لبحر يحواده ليغرق فيه ، وسفر أبرهة عن غايته بعد تمكن من اليمن وشروطها فبنى « القليس » في صنعاء ويجوز أن تكون مصحفة من كلمة الكليس اليونانية بمعنى المعبد والمجمع أو من كلمة يكتس بمعنى التكليس أو الطلاء . فلما تم بناؤها أمر بتحويل الخج إليها وكتب إلى نجاشي يقول : « إنه ليس بمجتة حتى يصرف إليها العرب الخج » فقبل فما قبل إن أناسا من العرب كانوا يذهبون إلى هذه الكلمة احببة لبلندوها وأن سيدا من سادات نعيم فعل ذلك وتخذى أربابها أن تصبه بأدها إن كانت لها قدرة الأرباب . فكان من جراء ذلك محروا أبرهة عن مكة في عام الفيل المشهور .

هذه محاولة لاشك في الغرض منها وهو لاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن إلى الشام .

ومحاولة الأخرى كانت من محاولات السياسة الخفية لتخليك سيد من حرب عن مكة يدين بالولاء لدولة الروم . فارتضى قيصر تلك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى . وكتب له رسائل يساعدها قومه فعد لها وجمع القوم إليه برغيبهم في حسن الجزاء من قيصر ويندرهم بسوء العاقبة في الشام إذا هم عصوه وأهون ما هالك أن يغلق أبوابها في وجوههم وهم يذهبون إليها ويعودون منها كل عام . قال : « يا قوم ! إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تعيرون

من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم وأنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما أخذ منكم الجراب من القرط والمكة من السمن والأرواب فأجمع ذلك ثم أذهب إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تسجروا به وينقطع مرفقكم منه .

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كفرض تلك المحاولة لعسكرة ، وكلتاهما تثبت شيئا واحدا وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذرى السلطان في الجنوب ، وأن دولة الروم لم تكن تريد باختيارها وإنما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها إلى حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها ، واستطاعت « الكعبة » أن تحفظ مكانها على الرغم من خلوص مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل استطاعت ذلك لخلوها من تلك العروش وقيام الأمر فيها على التعمم دون التخصص وعلى تمثيل جملة العرب بمآثوراتهم ومعبوداتهم دون أن يسخرهم المسخرون من يسند بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للاتباع المكرمين على الطاعة وبذل الإذوة .

قداسة الكعبة

والأساس المهم الذي قامت عليه مكانة البيت المبكى أن البيت يحمله كان هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الأوثان والأصنام التي اشتمل عليها ، وربما اشتمل على الوثن العظيم بقدمه بعض القبائل وتردده قبائل أخرى فلا بغض ذلك من مكانة « البيت » عند المعظمين والمزدرين ، واختلفت الشعائر والدعاوى التي يدعيها كل فريق لصنعه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت كما ينولها سدنة المقيمون إلى حواره

والمتكلفون غرضه . فكانت قداسة البيت هي القداسة لئلا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم ، من ثم : أن يحكموا بالصلالة على نبيهم صلعم معنوم ويعطوا البيت غاية مقدرة من الرغابة والتقدير . . .

وعلى هذا كان يتفق في موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشئان منفردة من الجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد . وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ومناطها كلها أنها حنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود أن أباه قال له : « يا ابن أخي ! صليت مرتين قل معي نبي الله ﷺ ، فسأله : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهي الله ! »

وجاء في لأعاني أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يستقبل الكعبة وصلاته ويقول :

ليبك حقا حقا تبدا ورقا
عدت به عاذ به إبراهيم مستقل الكعبة وهو قائم
يقول إني لك عان راغم مها نجشني فأنسى جاشم
وذكر صاحب كتاب حنعة الله البالغة أنهم كانوا يصومون يومه عشوراء . وكان صيامهم من العجر إلى مغرب الشمس . وكانت فـ

لقايا من العادات التي عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على
 ونية واحدة بين أتباع دين من الأديان . وإنما يرغب فيها أنها أعمال
 ترضى الله . وأنهم يعرفون إما أعظم من سائر الآفة يتوجهون إليه
 بالدعاء . وهي حقيقة لا يتصورها الشك لأنهم كانوا يسمون عبد الله
 وينون فيقولون اللهم ليك . ولا يدعون أحدا من الأصنام . ورب
 ليت . فإذا قالوا رب البيت أرادوا به ربما فرق جميع الأرباب .

إننا في هذه الرسالة نذكر المحدثات ونقسمها كما قلنا في مفتحتها إلى
 قسمين : قسم ينقطع دون النتائج التي جاءت بعده . وقسم يتصل بنتاجه
 ويشرح من مناه إلى غايته في مجرى الحوادث . وليس بين هذه المقدمات
 متصلة ما هو أحكم اتصالا بين أوائله وخواتمه من قيام البيت في مكة
 ونوحيته فبذل العرب عن حرمة واحدة .

وقد سميت الكعبة حمراء . ونسب إليها الحمرة . وهم طوائف
 منشدون في فرائضهم وخلائفهم يدبنون أنفسهم بالنقش والرماد في
 مواسم العادة . فيقبضون زمنا في الغراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل
 من سقف أو ستار . ويحرمون على أنفسهم في الأشهر الحرام أكل الأنط
 ولحم وبيئ النجس من الرز والشر . ولا يجيزون لغيرهم أن يطوف
 بالبيت في غير الثياب الأحمية . ويعلمون المطاف بالليل للنساء إذا لم
 تكن عليهم هذه الثياب .

ومن رغبة جوار البيت حلف الفضول الذي تعاهد عليه أقام من
 عنة قرش ليصرون كل مظلوم ويردون الحق إلى كل مظلوم وليكون يدا
 واحدا في قتال كل غاصب يلج في ظلمه وغصبه اعترازا بماله أو بعصبته

وحزبه . وما من مقدمة لدعوة محمدية كانت الرم ولا أكره من هذه
 المقدمة يسيرا لاجتماع الكلمة على خير وتوحيد أبناء الجزيرة العربية و
 دعوة واحدة ليست يذئ سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس أو
 مشارف الشام الذين يدبنون بالولاء للأكرسة وللمقبصرة والنجاشيين .
 بل هي دعوة الله يلقاها أصحاب النجاش والعروش كما ينبغي عامة
 الخلق من عباد الله .

أسرة النبي أجداد النبي

منذ ثبتت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة وجبت له أمانة الخدمة بما له من حق عفوٍ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدمته السمت الذي يجعل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية وعلى مثابة من مقام العبادة والتفديس .

ولم يقم بهذه الأمانة أحدٌ كما قام بها أجداد النبي عليه السلام من بني هاشم ، فقد حفظوا حننها وعرفوا حتمها بل طبعوا عليه مطرة بغير كلفة ، وبدا مهم الإيمان بها في مآزق الشدة التي يمتحن فيها الإيمان بحب النفس وحب البنين فيقلب الإيمان على حب المرء لنفسه وحبه لبيته

وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق في الطباع ملحوظ الأثر في خلائق الأُسرتين من أيام الجاهلية إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون ، ومنها نجد من ندين متناظرين في هاشم وأمية إلا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الإنحاء .

كان بنو هاشم أصحاب عفيفة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوه . ويتعقد الإجماع أو ما يشبه الإجماع على أخبار الجاهلية التي تم على هذه الخصال في الأسرتين وبقى الكثير منها إلى ما بعد قيام السولة الأموية فلم يفتدوه

ومن هذه لأخبار أخبار المناقرات المتتالية تجمعها مناقرة حرب وعبد المطلب إلى نقيب جد عمر بن الخطاب إذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب حرباً قائلاً : « تنافرو رجلاً هو أطول منك قامه وأعظم منك مائة وأوسم منك وسامة وأقل منك لامة وكثر منك ولداً وأجزل منك صفداً وأطول منك منوداً .

أبوك معاهم وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام » والنسابون يؤيدون ما نواترت به هذه المناقرات ، فيقول دغفل النسابة لماوية وقد سأله عن جده أمية : « رأيت رجلاً قصيراً ضرباً بقوده عبده ذكوان » ... قال لماوية « ذلك انه أبو عمرو ! » قال دغفل : « ذلك شيء تقولونه أنتم أما قرش فلم تكن تعرف إلا إنه عبده » . ويقول لكلي في أبناء عبد المطلب : « كنوا إذا طافوا بالبيت يأخذون البصر » .

فلما في كتابنا عن ذى النورين عثمان بن عفان : « وقد يتردد التاريخ في قول بعض الروايات المقدمة على حالاتها ، ولكنه لا يحتاج إلى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الإسلام وبعد الإسلام ، ففي حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم ، وتغلب عنه بنو عبد شمس فلم يشركوا فيه ... وخلاصة قصته أن رجلاً يثانياً قدم مكة يبضاعة فاشترها رجل فلواه نحته وأتى أن يرد عليه بضاعته ، فقاء في الحجر أو في مكان على شرف وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بني هاشم وأحلافهم ألا يظلم بمكة غرب ولا

قريب ولا حرو ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم . وعمدوا إلى ماء من زمزم يجعلوه في جفنة ويثو به إلى البيت ففلس به أركانه وشربوه . وقد أتى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول .

وربما خفى السبب الذي يرجع إليه هذا الفارق بين الأسرتين . فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول وقد روى الأمويون الأوائل بشهادات كثيرة في عمود النسب وعرض لهم بذلك أناس من دوى قريابهم في صدر الإسلام وأشهر ما أشهر من هذه الشهادات قصة ذكوان الذي يقولون إنه من آبائهم ويقول الساميون إنه عبد مسلحق على غير سنة العرب في الجاهلية . ومما يعلل به هذا الفارق أن بني أمية كانوا يقيون عن ديارهم ويعودون إليها فلا يطيب للمقيمين فيها أن يعترفوا له بلعمرى الزعامة عليهم ، وأنهم اكتموا من الرحلة في بادئ الأمر حاجتهم وقلة محصولهم من نتاج النعم وأرباح التجارة . وليس بالبعيد أن « المعاهرة » التي أشار إليها المحكون بينهم وبين الحاشميين قد أورثتهم بعض أمراضها ودست في أخلاقهم شيئا من خبائثها . وليس بالبعيد أيضا أن الفارق بين الأسرتين إنما كان من قبيل تلك الفوارق التي تراها بين الإخوة كأنها قسمت بينهم ميزات الأخلاق فذهب أحدهم بالجود وذهب أحوه بالحيمة ، أو ذهب أحدهم بالكرم والأريحية وذهب أخوه بنقائضها من خلال الأثرة والدعوى .

وأيا ما كان سر هذا الفارق البين لقد كان بنو هاشم - أسرة النبي - أصحاب رئاسة ، وكانت لهم أخلاق ورئاسة .

عرفوا بالنسب والكرم وحسن الوفاء والعفة . وبرزت كى حبيفة من هذه الأخلاق في حادثة مأثورة مذكورة . فلم تكن خلافتهم هذه من مناقب الأماديع التي يتبرع بها لشعراء أو من الكلمات التي ترسل رسالا على الأستة ولا يراد بها معيها .

كان هاشم غياث قومه في عدم الخجاعة ، فبدل طعامه لكل مايل بمكة أو وارد عليها ، وسعى بهضم من ذلك اليوم هضمه الثريد ودعوة الجبايع إلى فصاعه :

عمرؤ الذي مشم الثريد تقومه ورجال مكة مستون عجف

وم يروى عنه أنه كان أول من من الرحلتين لفريش : رحنة الصيف ورحلة الشتاء . وحقيقة ذلك مما يخص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحصى تلك الرحلات ويضمها . فنسب إليه أنه أول من سها .

ومكانته في غير ذلك . وفي مدح لشجاعة خاصة . نسب عليها مصاهرته لبني النجار في المدينة . وزواجه من سلمى بنت عمرو التي كانت - لشرفها وعزها - تأتي أن تزوج إلا أن يكون أمرها بيدها ، ولو لم يكن لهاشم مقامه في حجاز كله لما أصهر إلى القوم ولا أنرضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريقين بين مكة والشام . وقد كان المعهود في بني عبد مناف أنهم لا يقعدون جميعا في ديارهم وأنهم لا تزال لهم حمة طاعة في رحلاتهم وسفارهم ، ومات أكثرهم في غير وطنهم . فمات هاشم بغزة في الشتاء ومات عبد المطلب برومان إلى ناحية من أرض اليمن . ومات نوفل بسلان في العراق .

وابن ماشم عبد المطلب سيد قريش غير مدافع . ويبلغ هذا التقابل بين الأسرتين أقصى في عهد مناظرة حرب بن أمية . فكان كلاهما نصا في بابه من طرف العقيدة والأريحية وطرف السعي والحيلة . وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين . مؤمنا بمحارم دينه في الجاهلية لأن ثقة الإيمان طبيعة في وجدانه . وهو أول من حلّى الكعبة بالذهب من مله . ويعتبا منه أنه كان في الحق نصا فريدا بين أصحاب الطابع التي فطرت على الاعتقاد ومناقب النبيل والإيثار . فلم تكن مناقبه من مدق الطابع والوثيرة التي تنكز على صورة واحدة بين المتصفين بها . ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التي تعرف هذه الأسماء في جميع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة

بل كانت مناقبه مطيبة تدل عليه ولا تصدر من غيره . وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة .

وهذه طائفة من أخباره لا تفتقد في واحدة منها تلك المناقب المطلوبة التي تعز على خيال المتخيل مأم يكن وراءها أصل تحكيه وترجع إليه .

وصل أبرهة الحبشي عام الفيل إلى أرباض مكة وبعث رجلا من العرب يسمى حنظلة يسأل عن أمير مكة . ويبلغه أن أبرهة لم يأت لقناتهم وإنما أتى لهدم البيت الحرام فإن لم يمنعه فهم في أمان من حربه . فلما لقي الرسول عبد المطلب وبلغه رسالة أبرهة قال لعبد المطلب : والله ما نريد حربه . وهذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم فإن يشأ منع بينه وحرمة وإن لم يشأ تحلّ عنه . والله ما عندنا من قتال .

قال الرسول : نطلق معي إلى الملك . فانطلق معه عبد المطلب إلى أن أتى مسكر أبرهة ودخلوه عليه .

يقول الرواة : وكان عبد المطلب رجلا عظيما سبيا ويا فتره أبرهة من سريره وحلّسه معه وسأله عن طلبه فقال عبد المطلب : الإبل التي ساقها جندك !

ويقول الرواة : فهان أمر عبد المطلب في نظر أبرهة وقال له : أنسأ عن البعير وترك البيت الذي هو دين آبائك ودينك من بعدهم ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل . وليت رب يحسبه . فأمر برده إلى عبد المطلب دون غيرها . فأتىها عبد المطلب وقلدها المال وسقه هديا إلى الحرم . ووقف على باب الكعبة يقول :

يارب لا أرحو قد سواك يارب فامنع مني حماكا
بعدو ليت من عداك فامنعهم أن يحربوا قراكا

هذه هي القضية التي نعتبها في خصال هذا الرجل العظيم : لا تهور مع القوة الطاغية . ولكن لا خضوع لها بل وضع لها في موضعها . وهو يتدرب كل منهم . فإذا خسر الظن أحدا لا ينهم معنى هذه الأنفة التي تأتف من التهور كما تأتف من الحزن فهناك الجواب الفعل الذي يعني ما ليس ينبغي نقده . سألت عن الإبل لأنني أضل بأثمانها فإني قد وهبتها بعد ذلك لبيت . ولكنني سألت عنها لأنها هي موضع سؤال . وترك السؤال عن بيت لأن استجداء الرحمة من أبرهة لبيت الله يعني الثقة بالبيت وبالله . . .

وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لاشك فيه ، وهو ملك الجندري

بهم لداته بين آبائهم ودهوم . وفهر في إيمان الطفولة ذلك انطلق إلى
أهول وذلك الحنين إلى العراب وتلك الرغبة في كل حركة وكل انتقال
من مكانه الذي هو فيه . وقال لعمه بعد أن تهلل لمآه ورحب بالعودة
معه إلى قومه : لن أترك أمي أو تأذن لي بالسفر معك راضية .

وفي سفرته تلك سمى عند مدخل مكة بعد المطلب لأن أهلها رأوه
مع المطلب لأول مرة فحبوه عداً اشتراه . وجعلوا يدعونه باسم
« عبد المطلب » كلما أرادوا أن يميزوه من أسائه . فقلت عليه

وشب الغلام عزواً أبا لا يستكين للهزيمة ولا يزل عن حق له أو
حق كان لأبيه . فلما أراد عمه نوفل أن يستأثر بتمتلة أبيه هاشم وميراثه
لديه تحين الفرصة للسفر إلى المدينة وعاد إلى مكة بعصبة من أقارب أمه
وأخواله . وهم أولو عصبة أشد . يشاد بغوهم في مدائح الشراء :

ولو بأنى وهب أنفت مطيبي

عدت من نداء وحلها غير حائب

فلقاهم عمه نوفل مرحباً ودعاهم إلى ضيافته فلم يقبلوها أو يرضى
فأهم ، فصالحهم على ما يرضيه ويرضيه .

وصح تغاؤل في عبد المطلب فعاش حتى ناهز المائة أو جاوزها
ومات والنبي عليه السلام دون العاشرة فعهد به إلى كفالة عمه أبي طالب
شقيق أبيه .

وكل متفرقت فيه الروايات من أمره قد استقرت على صفة لا تفرق
فيها روايات . وهي صدق التدين والإيمان بحارم الدين في سداته أو في

غير سداته ، واسم ولد من أولاده عبد العزى الذى اشتهر بعد ذلك باسم
أبي فب لزهرة كانت في لون وجهه ، ومن حديثه أنه كان يتمصب
للعزى التي نعى إليها باسمه . وأنه رآه أحد عبادها المتسكين لما في مرض
موته فوحله يسكى . فسأله : ما يبكيك ؟ أمن الموت تبكى ولا تفرسه ؟
قال الرجل : كلا . ولكني أخاف ألا تعبد العزى بعدى !

فقال أبو فب : والله ما عدت وأنت حي لأجلك ولا تترك بعدك
لوتك . فاطمأن الرجل ومات وهو يقول : الآن علمت أني خليفة
برعاه

وكانت العزى بوادى حراص على يمين المصعد إلى لعراق . وكانت
قريش قد حمت لها شعاً يقال له سقام يضاهون به الكعبة . وهي التي
يعتبا أبو جندب المذل إذ يقول في بعض غزله :

لقد حسمت جهداً بين غيبة

بفرع النسي تحمى فروع سقام

ولما منح نذبح فيه اللبائح ويقصد إليه الحاج بعد منى كما يقول
نيكة الغزاري مخاطب عامر بن الطفيل :

بأهام لو قدرت عليك رماحنا

والراقصات إلى منى قال الغنيم

وشأن هذه الفصة في مناقب عبد المطلب أن التلحين لم يكن وسيلة
من وسائل الرجل إلى طلب السيادة والقدانة ، وأنه لم يتدين لأنه سادن
لكعبة وصاحب المنفعة في تعظيمها . بل كان يعظم العزى ولا ينفعه

له في هذا التعظيم . وكان الدين عنده إيماناً خالصاً من الحيلة ومن مآرب الكهانة .

ولا يخفى أن الوراثة في الطبائع لافي الشعائر وظواهر العادة ، فمن كانت عنده عقيدة الإيمان بالغيب والعلم بما يؤمن به عن عوارض الأهواء والذباب . وهان عليه سبيل المنافع والشهوات في سبيل رضاه . وطابت نفسه بالهداء وفرائض الطاعة والوفاء فهذه هي الطبيعة التي نورث على اختلاف الشعائر والعبادات . ومثلها في ذلك مثل الشجاعة في القتال ومثل السخاء بالمال . فإن الابن الذي يرث الشجاعة من أبيه لا يرث منه ميدانه ولا تتوقف شجاعته الموروثة على سلاحه . فقد يجارب الابن بسلاح لم يبره أبوه ، وفي ميدان غير ميدانه ، وقد يبذل المال لإقامة سسجة ولم يبذل أبوه المال إلا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن . ولا غصاصة على ماورثه من شجاعة ولا ماورث من سخاء .

وهذه الطبيعة هي التي ينظر إليها الناظر في مناقب الأسرة الموروثة . فلو كان عبد المطلب ينافي بالثدين ليخضع به قومه ويتفرع به إلى الرئاسة عليهم لما كان هو عبد المطلب الذي تورث منه خصال الصدق والإيمان ، ولكنه تورث منه هذه الخصال حتى يصدق في معتقده بالكعبة وبالغزى ، وحين يدين الناس بما يدين به نفسه في رئاسة هؤلاء الناس

أبو طالب

وكان أبو طالب - خليفته في الوصاية عن النبي - أشبه أمثاله به في جميع خصاله ومناقبه .

واخلاف كثير من أسلام أبي طالب . إذ لم يتفق لروية على إسلام أحد من أعمام التي غير حمزة والعباس وهما في مش منه . ونعباس بكبرها شحو ثلاث سنوات .

ولكن لاختلاف على حياته له وجه إياه وصبره على عداوة قرش كلها في سبيل نصرته ورد أذاهم عنه . وقد بقي في ذلك ما يجيز وما لا يطبق . وعرض عليه الخطب وأشفق من مفتة عليه وعلى ابن أخيه فقال له في ساعة من أشد ساعات الحرج : « أبق على نفسك يا بني ولا تخشى من ألام مالا أطيع . . . » فحزب على وحسب له سبحانه . وقل له وهو بهم يتفارقت : « والله يا عم ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته »

فمر يرح النبي غير قليل حتى ناداه عمه وقال له وهو حزين حزنه : « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لأأسلسك شيء أبداً »

وفي رواية ابن إسحاق : « أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شدة مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصلبان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا . فكثرت ذلك ماشاء الله أن يمكث ، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وما بصلبان . فقال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم ، هذا دين الله ودين رسوله ودين أبيي إبراهيم . . . بعثني الله به رسولا إلى العباد وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجاوبني إليه وأعاني »

عليه . . . فقال أبو طالب : « أي ابن أخي ! إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن - والله - لا يخلص إليك بنىء نكرهه ما بقيت » .

وقال ابن إسحاق : « وذكروا أنه قال لعلي : أي بني ! ما هذا الدين الذي أنت عليه ! فقال : بأبى آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته ، فرحموا أنه قال له : إما أنه لم يدعك إلى خير . فالزمه » .

وبر أبو طالب بنفسه وحمل السيف في سبيل نجدته ، وروى القرطبي أنه ناجز أبا جهل وجلة فريش في مجموعهم يوم اعتدى ابن الزبير على في صلاته . وكان النبي عليه السلام قد دخل الكعبة ليصلي كعادته فقال أبو جهل : من يقوم إلى هذا الرجل فيفقد عليه صلاته ، فقام ابن الزبير فأخذ فرثاً ودما فطبخ به وجه النبي ، وانفلت لسي من صلاته وقصد إلى عمه فسأله عنه : من فعل هذا بك ؟ قال : عد الله بن الزبير ! فقام أبو طالب وومع سبعة على عاتقه وهنأه مع حتى أتى القوم ، فلما رآوه قد أبطل جعلوا يهضون فقال أبو طالب : والله لن قدم رجس لجلتك سبي ، فقموا حتى دنا منهم ، وأخذ أبو سب مرة ودما فطبخ به وجوههم ولحاهم وانصرف وهو يفظ لهم القول :

وقد تكفل أبو طالب بالنبي في طفولته البكرة وصحبه في غدواته وروحانه خوفاً عليه من إساءة تمسه في غيابه وانتوى السفر إلى الشام والنبي في نحو الثانية عشرة من عمره فأشفق عليه أن يحشمه عناء السفر البعيد ، ثم تبأ للرحيل فتعلق به الغلام الودود وبكى لفراقه . فلم يثر

على مفارقه وهو باك ، وقال لصحبه : والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً .

ولقد كان الرجل الجليل يذكر أخاه كلها تحت عيانه لعلام اجتم فنشرف عيانه بالدموع . ويقول : ما أشبهه بعد الله ! وقد كان أبو طالب وعبدته - كما تقدم - أخوين شقيقين . ولم يثبت قط في هذا الم الكريمة تفل طرفه عن ابن أخيه أو آخرته بكلمة لا ترضى من طفولته إلى أن جهر بدعونه . وقد جلف هذا الجمع من أحبار بني سب والنبي أحد من المؤرخين حتى أولئك المفسرين ندين حسبوا أن أبو طالب هو المفسر لما جاء في القرآن سورة الأنعام : « وإن يروك آلهم لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا أن هذا لأسأصير الأولين وهم ينهون عنه ويبأرون عنه . وإن يكون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

فقد وهم أولئك المفسرون أن أبا طالب كان هو المقصود بهذه الآيات لأنه كان يهوى عن أذى النبي ولا يلبس بعبه . ولم يكن أبو طالب ممن يلقون النبي ليجادلوه فيصدق عليه ذلك المفسر . وأوضح من خفا هؤلاء المفسرين ما ظنهم أن أبا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى في سورة القصص : « إنك لأنهدى من أحببت » . . . فإن سورة الأنعام قد نزلت بعد سورة القصص كما جاء في كتاب الإتيان . ولا نهاية للاجidal والنبي عن أدى النبي بعد الوفاة .

وعلى الجملة تبدو لنا رعاية أبي طالب لابن أخيه على الرغم من قرش خلانق رحمة ونخوة ووفاء واعتداد بالجلاء والكرامة . وتبدو لنا

العباس وحمة

وعمان آحزان عبراني طالب كانت لها شهرة وصلة بال دعوة النبوية عرفنا منها بعض ما انصفا به من صفات وكفايات . وهما العباس وحمة . وكلامهما اخ لعبد الله غير شقيق

فالعباس على صغره نزل السقابة بعد أبيه ، وامتاز بين سادات فريش بالرأى والدهاء وطول الأناة . وكان له علم بالأنساب وقدرة على تأليف الناس ودفع العداوات . مع هبة يحسب لها حسابها جلة قريش من هاشميين وأمويين ، وهو جد بني العباس ومن خلألقه خلألق أبياته الكفاة الدهاء من كل رئيس مطاع في هذا البت لفريد بين بيوتات الهشميين

وحمة فارس في خلألق الفروسية كلها من شجاعة وصدق وإيمان ودراية بالسيف والخيل . قال ابن إسحاق في قصة إسلامه : « فلم يلبث حمة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قومه راجعا من قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قصد لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة . وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من فريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في فريش وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة - مولاة عبد الله بن جدعان - قالت له : يا أبا عمارة . لو رأيت مالتى ابن أخيك محمد آتفا من أبى الحكم بن هشام ! . وجده ما هنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما بكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ^{صلى الله عليه وسلم} . فاحتمل حمة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، مددا لأنى جهل إذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل

المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ورفع القوس فضره بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتبه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على أن استطعت . فقامت رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة . فإنى والله قد سببت محمدا ابن أخيه سبا قبيحا

قال القوم : مبارك يا حمة إلا قد صألت .

فقال حمة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه ذلك . . أنا أشهد أنه رسول الله .

ومن أعلام رسول الله غير حمة العباس رجلان لم يسبا وهما الزبير وعبد لمزى أبو لهب ، وكلامهما كان بمنى بالطفل الصغير ويالله ويواله بالسؤا عنه ، وكان الزبير يرقصه بأبيات الشعر يرجو له طول العمر والتجاية ، ووهب له أبو لهب حارث ثوبية تزوجه وتخدمه في طقوله ، ولا يعرف من أخيار الزبير ما ينسب عن صفته وكفاياته ، وأما أبو لهب فالمعروف عنه - ولاسى في علاقته بابن أخيه بعد الدعوة - غير قليل .

كان بنو هاشم وبنو المطلب جميعا في نصرة النى من آمن منهم ، ومن لم يؤمن ماعدا أبا لهب وبنه . وفيه نزلت الآيات : « ثبت بدا أن لهب وثب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيبطل نارا ذات لهب . وأمرأته حالة الحطب : في جدها حبل من مد »

وتعليل هذا الشذوذ أنه من لوازم الأسر الكبيرة التى لا تشد منها أسرة ذات خطر في التاريخ ، فهو هنا لقياس المطرد مع طبائع الأسر ، كان

من حله أنه يدعى بعد العزى يتصب لها ويغضب أن يحسب أحد أمامه
أن عبادتها مرهونة بحياته كما تقدم .

وكان من حله أنفة الكبير أن يتفاد للصغير ، ولا تنس أنها أنفة
لا تستغرب في عشائر البادية وعشائر الرثاسة منها على التخصيص ، ومن
استغرها فليذكر أن العباس وحمة - عسى الرسول للذين أسلموا - كانا
من لداته عليه السلام إلا سنوات ثلاثاً أو أربعاً تقدم بها العباس فكان ما
أثرها في تأخير إسلامه سنوات

وكان من علل ذلك الشدة أنه كان على حلف ومشاركة لبيونات
فريش كلها لكثرة ماله وسعة تجارته وأعماله ، وقد قال للنبي في مجمع
الأسرة : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه
ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من اخذك ، فحسبك بنو
أبيك وإن أقت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشبك بك بطون فريش
وتهدمه العرب . فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر ما جئتهم به .

وفي مجلس آخر قال له أبو طالب : هؤلاء بنو أبيك يجمعون ، وإنما
أنا أحدهم ، غير أني أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت . فوافقه
لأنزال أحوطك وأمنك . غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين
عبد المطلب .

قال أبو لب : هذه والله لسواة . خذوا على يديه قبل أن يأخذ
غيركم . . . وانفض المجلس على غيظ يكظمه أبو لب وعهد يبرمه أبو
طالب ويقول فيه مقسماً : والله لنمنعه ما بقينا .

وهذا هو الحوى الذي يزين لصاحبه أن يروقه مساق الحكمة

والحيلة . فيزعم أنه يدفع الشر عن ابن أخيه وعن قومه ويخبرهم مالا
بنيقونه من جهاد العرب . وبه في طوبى ليأنت أن يتقدم لمن ما أصغر
منه . ويغشى ما يصبه من جراء انقياده لو سلت له كدياؤه .

وليس من العلل التي تنس في هذا المقام أنه كان زوجاً لأخت أبي
سفيان . وأن ولده كانا متزوجين رقية وأه كلثوم كريمة رسول الله .
وبين الزوجتين والزوجة إحسان لا تهدأ ولا تزال تتحين الفرصة للوقعة
والتمزقة وللعداء .

وأما كان ما كان من أبي لب فهد الشدة الذي يستغرب ألا يكون
وليس بالغريب أن يكون !

وأشهر أبناء الأسرة من غير الأعمام ابن عمه الحبيب وبنه بالقرية
عل بن أبي طالب رفضون الله عليه . وصفاته وكدياته تأخذ من كل
سيد من ساداتها بنصيب : شجاعه وطيبه وفهم وإقبال على المعرفة وإيثار
للمعروف .

أسرة لا تخرج البيرة وما خرجت قط من خير ما .

ونشأة التي عليه السلام فيها أصدق المقدمات التي قلنا إنها مقدمات
مهيد والتخصيص .

إلا أنها كدائر المقدمات التي مهدت من جانب لنقم المصاعب كلها
من جانب آخر .

أسرة عزيزة الآباء ولأجداد . فخبرها بالنسب أعظم من كل محر .
وسيدتها بالخلائق الموروثة ثبت من كل سبادة . ثم ينشأ ما من بينها نبي

بنوعى على الآباء والأجداد ما كانوا عليه من ضلالة ، وينكر من الأبناء أن
يسلكوا مسلكهم ويهيروا على آثارهم . وينفون لهم كما قال إبراهيم :
« لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبين »

ويبيب بمن آمن منهم : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم
وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان »

ويدعوهم أن يتبعوا ما أنزل الله لأن آباءهم لا يعقلون : « وإذا قبل
لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم
لا يعقلون شيئا ولا يفتدون »

لقد نشأ محمد فى الأسرة التى تعطيه خير ما تعطى الأسر بنينا .
ولكنه جاءها بالنيرة التى لا يعطيا غير الله !
وكانت الأسرة تمهيدا له فيها ورث منها .

ولكنها وما ورثت من قومها هى عقبة الأرض التى تمهدا السماء .

والدا النبى عبد الله وآمنة

تلك هى الأسرة نعمة التى شملت الأجداد والأعمام . وللنبى
صلوات الله عليه . مع هذه الأسرة العامة : أسرة خاصة من أبويه
الشريفين عبد الله وآمنة

ولم يعقب لنا التاريخ كثيرا من أبناء هذين الأبرار الشريفين ، ولكنه
عقب لنا منه الكفاية لبيان أثرهما النفساني فى وجدان ولدهما العظيم
ندرت فى أبواب أعظماء أبوة كريمة عبد الله بن عبد المطلب ،
ونكاد نقول إنها مرت بغير نظيرها وعياها من تواريخ الأنبياء وخداة من
كل قبيل .

ففى لم يكد ينجو من الموت ذبيحا حتى مات بعيدا عن زوجه التى
فارقها عروسا وعن ولده الذى لم تره عينا .

لكننا وجد هذا الفتى فى الدنيا ليعقب ذرية تربيها العناية الإلهية ،
ثم يتركها فى كلاءة تلك العناية قدر لانغنى فيه عناية الآباء .

وفى تاريخ الأنبياء أب عاش حتى شهد بعثة ابنه فأذكرها وتواظا مع
نومه على خذلانها . فقبيل ذكره حيلة أمل وحيرة لمن يحس الدعوة
وبجل إبراهيم

فأما هذه الأبوة فالرحمة فيها تملأ مكان الحبيبة ، والبر بالذكرى يملأ مكان الحيرة وينطلق وراءه إلى الأنس على النفيد والعزاء للوليد الوحيد .

وحياة لانشيع سجل الحوادث والخطوب ، ولكن النفس تشبعها بما يعوصها عن حوادثها وخطوبها حباً سابغاً رحماً لا يقن فيه الحس والحيل .

وهذا لذي صنعه بديهة الحياة الصادقة فلم تدع سيرة عبد الله حتى أودعها من الخواطر والأمانى ما تزدحم به أعمار طول ، فما تمناه له الخزؤون على صباه وتقواه بفيض في جوانب سيرته حتى تمتلئ به مائة حبة

قيل في بعض ما قبل من هذه الخواطر والأمانى : إنه لما انصرف مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الإبل لرؤيا وآما سر على امرأة كامة متودة قد قرأت في الكتب يقال لها فاطمة فقالت له حين نظرت إلى وجهه - وكان أحسن رجل في قريش - لك مثل الإبل التي نحرت عنك وأبذل لك نفسي ، لما رأته في وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل هذا النبي الكريم ﷺ . فأجابها بقوله :

أما الحرام فالمسرات دونه وأخل لا حل فاستسنه فكيف بالأمر الذي نبغيته يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد زهرة نسباً وشرفاً فزوجه ابنته آمنة وهي يومئذ أفضل امرأة من قريش نسباً وموصعاً . فحملت برسول الله ﷺ . ثم خرج من عندها فرب المرأة التي عرضت عليه ما عرضت ففان لها : مالك لا تعرضين علي اليوم ما عرضت بالأمس . فقالت فارقك النور الذي كن معك

فليس لي بذلك اليوم حاجة . إنما أردت أن يكون النور في فأبى الله إلا أن يجعله حيث شاء .

ول أناب ابن هدام أن عبد الله « إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين فدعاها فأبطأت عليه لما رأته من أثر الطين ، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به ، ثم خرج عائداً إلى آمنة فرب برأته الأولى فدعته فلم يجبه . وعمد إلى آمنة فحملت بمحمد ﷺ ، ثم مر بأمهاته تلك فقالت له : مريت في وبين عينيك غرة بيضاء فدهونك فأبيت .

قال إسحاق بن يسار صاحب الخبر : فزعموا أن أمهاته تلك كانت تحدث أنه ربيها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس . قالت : فدعوتها وجاء أن تكون لي . فأبى علي ، ودخل على آمنة فحملت برسول الله وجاء لغير غير أن وثبات مكة ذهبت من الحسرة لزواج عبد الله من آمنة . وكانت كل فتاة ممن ثمنه زوحا لها لحاله وتحدث الناس بفدائه .

وفي كل هذه الأخبار قسط من الصحة لأنهم لم ولن يروا بين رواية السير له وبين خلوها منه . فإن بحبه في السير ثبت لنا معنى صادق لدلالة وإن يكن غير معناه المقصود : ثبت لنا ولونا من شعور الناس بصاحب السيرة ولونا من تعبيرهم عن ذلك الشعور . ومن كان هذا المعنى لغوا عده فخير له أن يتجنب السير والتواريخ .

وأما حكم الوقع على حدوث الخبر فحبه فيه حكم القرآن الكريم الذي يبطل علم الكهان بالغيب كما ينكره على أعوانهم من الجان . وفي

سورة سبأ عن سليمان بن داود عليها السلام : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خترت بينت اخن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين »

والقرآن الكريم يقول في غير موضع إنه لا يعلم الغيب إلا الله . ويقول بلسان النبي : « ولا أعلم الغيب » .

فلا كاهن يعلم من أمر الدنيا سرا من أسرار الغيب فضلا عن أمر البوة والرسالة ، والكاهنة التي تريد أن تحمل بنى لا يخطر لها أن تعمل به سفاحا فيقول لها عبد الله :

أما الحرام فالحرامات دونة والحلل لا حل فاستبينه وأما أن تكون زوجة ثم لا ترى من زوجها تلك الغرة قبل ذهابها ثم تأتي معاشرته بعد ذهابها - فليس مما يجوز تصديقه من شئون الزواج فالقصة كلها ، وما شابهها من القصص ، رغبة وزيد وزيدتها جمال عبد الله وأسمى النفوس لما ذات ذلك الجمال في عنوان صباه .

ولأنكران لما كان عليه عبد الله من الوصاة والوضاعة وغضارة الشباب سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا منها : فقد حفظت لنا رؤية العيان أنه كان وإحوته يطوفون بالكعبة مع أيهم فيأخذون الأبصار : ولم يصف الراصفون بني هاشم بدمامة أو معابة في الخلق والصورة ، حتى فيما وصفهم به الشائتون وضلاب الميوب .

• • •

وفيما وصل إلينا من سيرته قصة غير تلك القصص لا قبل للمبالغة وحدها بأن تخلفها ، لأنها تحتاج إلى افتنان في وصفها وتحتاج - مع الافتنان - إلى مصلحة مفروضة تدعو إلى اختلاقتها ، أو علة من العلل المعروفة تفسر لنا ذلك الاختلاق .

ولذلك هي قصة لنذر التي أوردناها في الكلام على الكعبة ، وهي نفوه بديوان جامع من القصص للتعريف بمخلائق عبد الله .

وليس يكفي في معيار النقد التاريخي أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقان إنها محترقة . فإن اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله في الزمى القديم وفي الزمن الحديث ، وإنما بطن الاختراع بالخبر لمسوغ يدعو إلى الشك فيه ولمصلحة توجب اختراعه وتفسرنا اضطرابا إلى تقيبه عن ثقة أو على ترجيح .

وهذه القصة بعينها ينبغي قبل نفيها أن نعرف مصلحة المسلم أو الجاهل في اختراعها وإصاقها بعد المطب وعبد الله : فقد قبل إنها اخترعت لتصوير عبد الله أبي النبي في صورة الذبيح إسماعيل : وقيل إنها لم تظهر في الجاهلية قبل البعثة الإسلامية .

فهل من مصلحة مسلم أن يخلق القصة ليقول إن جد النبي أوشك أن يذبح أباه قربانا للأصنام ؟

وهل من مصلحة جاهل أن يدع الافتنان في القصة وفي وسيلة الخلاص من القداء لينكر على سدة الكعبة قدرتهم على استخبار أربابها ويرجع بالفضل في الوسيلة والاستخبار إلى كاهنة خبيثة تفنى لهم في شئون عباداتهم وأبنائهم حيث يعجزون عن الفتياء وهم مقترون إليها ؟

ولم هذا التخصيص بعبد المطلب وعبد الله ؟ ومن الذى كان عنده من قدرة الاقتان فى القصص مثل هذه القدرة ثم خفى أمره ولم تأت منه أفئدة مشها فى زمانها ؟

وهناك مسوغ آخر للظن يندرج إلى الذهن إذا كانت هذه القصة قد حدثت لاحد قبل عصر عبد المطلب ثم نقلت إليه ، كما حدث كثيرا فى القصص المتكررة التى تروى عن أناس متفرقين ، ولكن هذه القصة بدأتها لم ترد بها الرواية فى بلاد العرب أو غيرها عن أحد غير عبد الله ، وليست هى فى موضع فى بلاد لم تعهد السهام وضرب القداح والقتال بالابل والتفري إلى كعبة تجمع الأصنام من هبل إلى نائلة إلى أساف . فلماذا اخترعت فى بلاد العرب وخض عبد الله باختراعها عليه ؟

إن لم تكن هناك شبهة من هذه الشبهات ومسوغ من هذه المسوغات فقبول القصة أولى من رفضها ، وتأليفها على هذا الاقتان لغير قصد معلوم أصعب فى وقوعها ، وقد تساق فى معرض ترجيحها وتداولها إلى منتصف القرن الأول لهجرة رواية للطبرى يقول فيها بعد سند متصل : « أن ابن عباس سأله امرأة أنها نذرت ذبيح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبيح مائة من الإبل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب ، وسألت عبد الله بن عمر فلم يفهما بشئ بل توقفت ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال إنها لم يصيبا القنبا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبيح ولدها ولم يأمرها بذبيح الإبل ، وأخذ أناس بقول مروان ،

والحق بين رفض القصة وقبولها أنه لا موجب لرفضها وليس فى قبولها

ما يخالف ما لوقا من ملوفات زمانها . وقد كان نذر عبد المطلب طلباً عزيزاً من الإله يذل له فديته . وكان الوفاء من فضائله الماثورة وكان مع الوفاء بالنذر إيمان بسوء العقبى وحذر من أن يصيب الجزاء أبناءه جميعا . فليس فى هذا الوفاء خليفة تختلق لإنها فوق طاقة الإنسان .

ومن رضى قصة النذر هذه فنصيب عبد الله عنده أعظم من نصيب أبيه . لأنه سلم حياته فدية لإخوته ولم ينكسر عن طاعة أب وضاة رب . ومن يفعل ذلك ينبئ عن إيمان قوى بالواجب وإقدام على الموت فى ربحان الشباب . وقد كان له أن يتحمل المعادير فلا نعوزه الخيلة . فكان من رضى لا ينكر الدين ولا يترقى منه إذا ساءه الدين ما يعز عليه لم تتعد عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجترار على أمره ونواميه .

عن أن الملاحظة التى تستوقف من أمر هذه الأسرة لقوية المباركة أن أخبارها الماثرة التى ترسل أرسالا فى المناسبات المتفرقة أدل عينا من الأخبار التى تنتظم فى مناسبة واحدة وتحتمل مظنة الوضع والتأليف . ومهما تنافرت الأخبار عن أحوالها فى الجاهلية تخلص بنا إلى خصلة ملحوظة فى جميع هذه الأخبار وهى « النقام » لدى توحاه فى معاملتها وعلاقات أفرادها على البديهة بغير تدبير مقصود .

فمن مناسكته ومن هناك خبر ومن جوانب شتى أحاديث وروايات ركلتها يطبع بهذا الطابع بغير شذوذ حتى حين ينتظر الشذوذ ولا يستغرب ، فأبو هب نفسه - وهو الخارج على اجماع الأسرة - يأتى فى مجلس قريش أن يسم أخوه الكبير - أبو طالب - ما لم يتعوده

من الطاعة والتوقير ، وبحضر مجلس الأسرة فلا يزيد على كلمة بقولها خير
يسمع من أخيه أنه ينصر محمدا ولا يستمع فيه للامة بعيد أو قريب ، ثم
ينصرف من المجلس وهو كظم

أما في سائر مجامع الأسرة فالطاعة والتوقير سنة لا يخالفها صغار
الأسرة في مجالس كبارها ، فإذا جلس عميدها جلسوا وراءه وصمتوا في
حضرته لا يبدعون بالكلام إلا أن يدعوهم إليه . ومن هنا عجبهم أن
يقبل الغلام اليتيم إلى مجلس جده فيقصد إليه ويجلس إلى جواره ، وهم
مع علمهم بإشفاق الجد عليه وتذليله إياه يستدعونه إليهم ليجلس معهم
حتى يأمرهم الجد فيسكتوا عنه وهم لا يقلون إشفاقا عليه .

ومن نظام الأسرة أن عبد الله خرج بعد زواجه مع أول قافلة حان
موعدنا ولم يتخلف عامه ذلك إلى عام قابل ، وهو يفرغ من عرسه الذي
كان خليفا أن يعطيه تلهف أبيه وآله على حياته بعد اليأس منه في قصة
النذر المشهور ، فخرج مع القافلة ولما ينقض على زفافه أسبوعان على
أرجح الأقوال .

ولاشيء أشبه بالواقع للظنور في قصة زواج عبد الله بعد الرفاء بنذره
واستقاء حياته ، فإن أباه - لا جرم - قد امتلأت نفسه زمنا بشيخ
الموت يطيف بولده الحبيب إليه ، فليس أقرب إلى خاطره من تعويض
ذلك الشعور الجاثم على صدره بالاطمئنان على بقاء فتاه والغبطة بدوامه
ودوام قريته من بعده ، ولا سيما الدوام بعد النذر الذي كان مبعثه تعب
الشائين بقلة الذرية وإبتئاس الأب خرقا من انقطاع المتب مع ولد
وحيد .

واختار الأب زوجة عبد الله من بنى زهرة احلاف بنى هاشم
والمطلب في كل خلاف : زوجه آمنة بنت وهب أعرف بنى زهرة نسا
وأكرمها محندا ومدرة العشرة كلها في مجامع قريش ، وينسب نسب لآب
وأمه إلى عبد مناف ، وقد فخر رسول الله بانتسابه إلى هذه الأمومة
فقال : « أنا ابن العوائك من سلم » .

روى الإمام أبو نعم الحافظ في كتاب دلائل النبوة بعد إسناد
متصل : « أن عبد المطلب لدم اليمن في رحلة الشتاء فترى على حبر من
اليهود . قال : فقال لي رجل من أهل الديور - يعني أهل الكتاب -
يا عبد المطلب ! أتأذن لي أن أنظر إلى بعضك ؟ قال : نعم إذا لم يكن
حورة ، قال : ففتح إحدى منخري فنظر فيه ثم نظروا الآخر فقال :
أشهد أن في إحدى يدك ملكا وفي الأخرى نبوة . وأنا نجد ذلك في بنى
زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدري ! قال هل لك من شاة ؟ قلت وما
الشاة ؟ قال الزوجة ! قلت : أما اليوم فلا . قال فإذا رجعت فتزوج
فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن مناف بن زهرة
فولدت حمزة وصفي ، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت
وهب فولدت رسول الله . فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة
فلج - أي فاز - وغلب عبد الله على أبيه » .

وهذا مثل من الأخبار التي لا تثبت على النظر وتنبى على حقيقة ثابتة
وهي اتصال النسب بين آل عبد المطلب وآل وهب ، واتصال اليتيم في
الحياة الزوجية لما كان من الاتصال بينها في الحياة العامة ، ولم يأت هذا
الاتصال القديم بنبرة من ناسك في اليمن تنكشف من النظر
متخزين .

انتقل عبد الله بعروسته من حى وهب إلى حى عبد المطلب بعد أيام
العرس : فلم يطل فيه البقاء إلا ريثما أذن مؤذن القافلة بالرحيل .

ولم بعد من رحلتك تلك إلى داره . فإنها كانت الرحلة الأخيرة لكل
راحل أو قاعد في هذه الحياة : رحلة من ظاهر الأرض إلى جوف
الضريح .

وولد النبي عليه السلام بعد موت أبيه على أشهر الروايات ،
فأرضعته أمه وأرضعته معها ثوية جارية عمه أبي لهب . ثم عهد به إلى
حليمة بنت ذؤيب تستم رضاعه في بادية قومها بنى سعد على سنة العلية
من أشراف مكة ، يتغنون النشأة السليمة واللغة الصحيحة بعيدا من
أخلاق مكة وأهوائها . ولم يكن الطفل اليتيم على يسار لأن أباه مات في
مقتبل الشباب ، ولكن أمة أبيه وأمة أمه تكفلتا بنشأته كما ينشأ أبناء
السراة من قريش ، فأخذته المرضعة بعد تردد . ثم أعادته إلى مكة قبل
أن يبلغ الثالثة ، لأنها سمعت من ابنها أن أخاه القرشي قد صرع وهو
معه ، وأن رجلين أخداه فإذا هما يشقان بطنه ولا يزالان بسوطانته . فلما
ذهبت إليه حيث ترك ابنها وجدته قائما ممتنع الوجه . فبادرت به إلى
مكة مخافة عليه ، وطلبت إليها أمه أن تعود به إلى البادية تخشى على
الطفل من هواء البلد ولا تخشى عليه من ذلك الخطر الذي حشيت
المرضع الرزوم ، بعدما سمعت من ابنها ورأته من امتناع لون الوليد القرشي
وقيامه متفردا في الخلا ، فلما عادت به إلى البادية أتم رضاعه فيها ولبت
معهما إلى الخامسة أو قبلها بقليل ، وتكلم وجرى لسانه بالعربية الفصحى
وهو بين بنى سعد ، فذلك فخره بعد النبوة إذ يعجب الصحابة من

فصاحته فلا يرى عليه السلام عجا في فصاحة عربى نشأ في بنى سعد
وتربى في الذؤابة من قريش .

• • •

ولم يكد الصبى يطمئن إلى جوار أمه بعد عودته من البادية حتى
فقدما ومما في زيارة لغير أبيه بالمدينة .

وما كان قد بقى في الدنيا للفتاة الأيم غير هذا الصبى وذكرى أبيه
الراحل في غربتين : غربة الموت وغربة المكان .

فخرجت به ضيفا ترور الفقد الراحل في منواه وتحسبه مشوقا تحت
طباق الأرض إلى رؤية الوليد الذى لم تبصره عيناه تحت شمس النهار .

وكذلك ترور الوليد اليتيم أباه .

فلما قضت حق الزيارة ولبت في جيرة أخوال عبد الله شهرا أو بعض
شهر ، قفلت بوليدها راجعة إلى أمكان ، فانت ودانت في الطريق .

وكل ما وعته السيرة من مرضها أنها وعكت من لفحة السموم فلم
تطل بها الوعكة غير أيام .

• • •

ومن اليسر أن نعلم وقع هذه الفاجعة في نفس الصبى اليتيم ،
يتجدد له مصابه في أبيه فلا يكاد يبرح ضربه حتى يفك على ضريح أمه

مهجورا في عرض الطريق .

إلا أن هذه الفاجعة بما تدل عليه أهم في دراستنا هذه مما خلقته في

نفس الصبى الصغير .

مصابه في أبيه ومصابه في أمه ، ولم يزل صيا صغيرا حين أطبق
عليها مصابه في جده الذي ضمه إليه بعد فقد أبيه .

لو نفس صغيرة تابعت عليها هذه الضربات في صباها لسحقها
واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل ، فلا تعيش - أن عاشت
بضرباتها - إلا كما يعيش الأشباح في ظلمات الحياة .

فاذا وجدت لنا وقفة عند هذه الضربات التي تلقاها الصبي فأول
مانتف لديه وأولاه بالوقوف الطويل إنها دلالة على القوة في مكنتها وعلى
الروح العظيم الذي تجلّى بعد ذلك في تاريخ بني الإنسان ، كغدا لأعظم
الأعباء وأقبح الخطوب .

وقل ذلك وقفنا أمام العطف الذي أفادته تلك النفس القوية من
ضربات تسحق مادونها وتزف منها كل عطف وأمل .

وقد خرج الصبي من تلك الضربات القاصمة بالمعاطفة الزاخرة التي
تشمل العالمين : عالم الحياة وما بعد الحياة ، مذكّرا أن أحب الناس إليه في
عالم آخر لا يتبدى له هذه الحياة ، وجاءت بعثته إلى الناس كافة باسم الله
الرحمن الرحيم .

ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك
قوته التي دان لها هذا العالم المشهود .

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس وأعم من دنيا الأحياء .
وحاجز الموت عنده يورخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحى
والميت ، ولا يتقل فيه الخلق في دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل يعيشوا
آخر الدهر خالدين .

وقليل في حب هذا فائدة العطف الذي عهدناه من صبه إلى حتام
حياته يحيط به كل إنسان وكل حى وكل شىء . وإنما يترجم عنه عطفه
على حاضته وعلى مرضته وعلى كل باقى من بقايا أمه وأبيه ، ولم يزل
يترجم عنه عطفه الذي لم يحرمه أحد قط من صاحب أو صديق .

• • •

ولاندع الكلام على الأسرة النبوية وفي الخاطر سؤال تروحي إلينا أن
نسأله وأن نجيب عنه ما نستطيع الجواب .

لقد مات عبد الله وآمنة ولما تجاوزا الخامسة والعشرين . ولا يكون
الموت في هذه السن إلا علامة على الضعف والهزال ، إن لم يكن من
مرض يستند الأجل في عفوان الشباب .

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبيين ضعيفين هزيلين ؟

إن لم تكن غربة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لدفع
هذا الظن فلا حاجة إلى دافع له غير حياة الوليد بما استوفته من قوة
الروح وقوة الجنان .

وقد سأل أناس من كتاب القرب هذا السؤال وغيل إليهم أنهم
وجدوا جوازه في قصة الصرع المزعوم قبل الفطام وفيما كان يعروه من
برحاء الوحى التي وصفها الأفريوني منه ، وأبسرهما أنه كان عليه السلام
يرعد ويضطرب ويتقاطر منه في اليوم الثاني عرق كحسب الجمان .

وعجيب أن مصابه الإنسان بصرع لا يعروه غير مرة واحدة في سن
الرضاع ، ثم لا يماوده مرة أخرى إلى قرابة الأربعين .

نتيجة النتائج

ونتيجة النتائج من مقدماتها جميعا أن حوادث الدنيا وحوادث الجزيرة وحوادث الأسرة : قد مهدت سبلا شتى للرسالة المحمدية ، ولكنها مهدتها لتأتي الرسالة بعدها فتثور عليها وتكث غزوها ، وتعيد لها على العالم الإنساني في نسج جديد .

يتم في غير ذلة .

عزيز في غير فسوة .

يرث الكعبة ولكنه يهدم أربابها ، ويرث الاربعية من يقين بني هاشم ولكنه يغير مجراها ، ويرث العصبية في أفواها وأمنعها ولكنه يقودها إلى عصبية واحدة تضم إليها العرب والعجم ، وتؤمن برب واحد هو رب العالمين .

وجائز أن يكون صاحب الرسالة قد حرف في صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية ، ولكنه ليس بالجائز أن تعلمه كيف ينكر أخطاءها ويقوم التواءها ويرتقي بها من أوشاب الشرك إلى صفاء التوحيد .

مهدت له الدنيا طريقا ولكنه هداها إلى غير تلك الطريق .

فهما تمهيدان بتلاقيان ويفترقان : تمهيد من قوانين الكون وتمهيد من العناية الأزلية ، وحيث ينهض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه ، فليست هي بإرادة إنسان ولكنها إرادة الله ، وما هي بقدرة أحد أو آحاد ولكنها قدرة الخالق فيها خلق ، يوليها من يشاء حيث شاء .

فهرس

صفحة	
٣	مقدمة المقدمات
٧	الطوال والنبوءات
٣٣	الاحوال العالمية قبل الدعوة المحمدية
٤١	الجزيرة العربية قبل بعثة المحمدية
٨٢	النبوة المحمدية
٩٩	سيد الانبياء
١٢٠	دين الانسانية
١٣٠	الكعبة
١٤٠	أسرة النبي
١٦٣	ولدا النبي عيد الله وأمنه
١٧٨	نتيجة النتائج